

نصيحة ...

لا تقرأ هذا الكتاب إذا كنت من الذين :

(١) يطلقون التعميمات ويتخذون منها قواعد لتفكيرهم ، مثلاً: كل اليهود أولاد كذا وكل الأمريكان أولاد كيت ... إلخ ، نحن هنا فى سبيل ممارسة التفكير العقلانى القائم على المنطق ، أنا لست على أى درجة من الاستعداد لأن أمتلى بغضاً لجنس بأكمله أو لفئة اجتماعية من أولها لآخرها ، اليهود بشر فيهم من يستحق البغض ومنهم من ... حسناً ، لا يستحقونه.

(٢) يميلون إلى التعليل الميتافيزيقي ويستغرقون فى الخرافات، اليهود جن خفى، إنهم وراء كل ما يقع فى هذه الدنيا. الزلازل التى حدثت فى أسوان والقاهرة كانت من تدبيرهم، موجة الحر التى نعانى منها هم الذين صنعوها بالتعاون مع ال "سى - آى - ايه" ، إلى آخره. وقد رأيناهم يأخذون بـ "الصرمة القديمة" سنة ١٩٥٦ ، من حلفائهم الأمريكان، وكان ممكناً أن ينالهم المزيد ، وهذا الكتاب يظهر — أو هذا واحد من أهدافه — كيف أننا نحن الذين وضعنا لهم ما يريدونه على صينية من الذهب وقدمناه لهم.

(٣) يؤمنون بأيدىولوجية ثابتة فيها وصفة لكل أوجاعنا ومشاكلنا كان ترفع شعار "حتمية الحل الاشتراكي" أو "الإسلام هو الحل" — العقائد شيء واستخدامها فى استعباد الناس بالممارسات الفاشستية ، شيء آخر . الخالق أعطانا عقولاً لكى نفكر بها، لا لنسلمها لأمثال تشاوشيسكو أو بن لادن ، هؤلاء كلهم دجالون لا يؤمن الواحد منهم بحرف واحد مما يبشر به .

(٤) يجدون لذة فى حل المشاكل بمجرد فقدان الشعور بوجودها إنكار المشكلة لا يؤدى إلى اختفائها، سوف تعود إلى الظهور

وترغمك على مواجهتها بقدر من الألم يتفوق على فقدانك للقدرة على الإحساس.

(٥) يقدسون الحكام ويعدونهم آلهة لا يُسألون عما يفعلون مهما كانت الكارثة التي تنال شعوبهم من جراء جهلهم وحمقتهم، هناك إله واحد في هذه الدنيا وهو فوق ، في السماء . نحن نعيش عصراً تطوّر فيه سلوك البشر نحو حكامهم وأصبحوا يرونهم على حقيقتهم التي رأها الضريّر أبو العلاء المعري ، عندما قال من ألف سنة أنه سنم الحياة في أمة "أمرت بغير صلاحها أمراؤها" ، وكيف أنهم "ظلموا الرعية واستباحوا كيدها — وعدوا مصالحها ... وهم ... أجراءها !" — نعم ، الحاكم أجبر لدى الشعب، تماماً كناظر الزراعة، مطلوب منه أن يحقق صالح شعبه وإلا أتى بغيره وحاسبه على أخطائه . ثلاثة رؤساء أمريكيون قدموا للمحاكمة في قرن وربع ، وهم جالسون على مقعد الحكم ، هيلموت كول ، رئيس وزراء ألمانيا الذي حقق معجزة الوحدة ، بسمارك الجديد ، لم تشفع له إنجازاته العظمى، وقدم إلى المحاكمة، لا بتهمة إنشاء خزانة في بيته ليوزع الملايين على محاسبيه ، بل بتهمة "إساءة استخدام ١,٢ مليون دولار تلقاها كتبرعات للحزب الديمقراطي المسيحي الذي يرأسه وانتهى الأمر بأن دفع غرامة تعادل نصف مليون جنيه مصري من جيبيه. ولا يقتصر هذا على أوربا، عبد الواحد في إندونيسيا ، إسترادا في الفلبين ، كل هؤلاء امتدت إليهم عصا التأديب. تأمل ما فعلته القيادة الفلسطينية بشعبها وما تزال تفعله إلى هذه اللحظة ! اتهموا عبد الناصر بالخيانة لأنه أعلن موافقته على مشروع روجرز، ثم رفعوه إلى مرتبة قديس . اتهموا السادات بالخيانة ووزعوا الشربات عند اغتياله ورفضوا أن يشاركوا في محادثات مينا هاوس حيث كان لهم مقعد مخصص وعلم مرفوع ، ثم ذهبوا إلى نفس المكان : كامب ديفيد (اتفاقية اسطنبول داوود الخيانية كما تسميها إذاعة دولة عربية لا تشير إلى

إسرائيل إلا بعارة : قطعان الهمج الصهاينة ... إلخ) ، وعادوا من كامب ديفيد بالخيبة . أثناء كل هذا الرفض لجهود السلام ، كان ما يقرب من ربع مليون إسرائيلي قد استوطنوا الضفة وغزة ، من المسؤول عن هذا ؟ كل الناس إلا الوحيد الذى هو مسؤول . نفس هذا المسؤول أعلن وقوفه إلى جانب صدام حسين فى عدوانه على الكويت والسعودية مما أدى إلى خراب بيوت عشرات الألوف من الفلسطينيين الذين أقاموا حياة جديدة ورغيدة فى بلدان الخليج . من المسؤول عن هذا الأذى الماحق ؟ كل الناس، إلا المسؤول .

ولا حول ولا قوة إلا بالله !

كنت أشاهد تليفزيون "بى - بى - سى" منذ أسابيع ، وكان واحد من "وزراء" السلطة يجيب على أسئلة المذيع تيم سيبا ستيان ، مضى المذيع يستجوبه بشأن ما يشاع عن تبديد أموال السلطة الفلسطينية على البذخ والطائرات الخاصة وعما يشاع عن نهب أموال الشعب الفلسطينى ، هذا بالضبط هو التعبير الذى استخدمه المذيع "pocketing" ، يعنى دسها فى الجيوب ، كان "الوزير" قد بدأ يتحدث عن الاحتلال ، "تحت محتلون" ، مضى يجيب على كل هذا بهذه العبارة : "تحت محتلون" - "تحت محتلون" ، أما دعاوى النهب والسلب ... فهم معذورون فيها ، لأنهم محتلون .

بعد كل هذا مطلوب من الناس أن يموت أولادهم فى معارك غير متكافئة وغير مجدية ، ومطلوب منى أنا كمواطن فى بلد مثل مصر ، حيث المواطن كما يصفه يحيى حقى فى قنديل أم هاشم : "بولسه دم وبرازه ديدان" - مطلوب منى أن أنام على البغضاء وأصحو على الكراهية . لآ ، هاتوا زعماء أكفاء ومخلصين أولاً ، وسأكون ، وأنا فى أرذل العمر ، على استعداد لأن أموت معهم فداء لوطنى ، وليس فداء لهم .

هل لدى هؤلاء الهمج أغنية تقول "أنا شفت بنجوريون والنبي يامة ؟" - الواقع أن بنجوريون ، مؤسس دولة إسرائيل ، واشنطون

إسرائيل كما يعدونه، سقط من رئاسة الوزارة بسبب خطأ وزير دفاعه لافون، في فضيحة لافون كما تسمى، لا سرقة ولا نهب ولا خرب البلد ولا أودى بشعبها إلى أسوأ مصير. هذا هو لب موضوعنا.

الحق والقوة ...

"اسمعوني إذن ... إنني أعلن أن القوة هي الحق، وأن العدالة هي ما يحقق صالح الجانب القوى . إن مختلف أشكال الحكومات تسن القوانين، ديموقراطية، أرسوقراطية، أوتوقراطية، طبقاً لما ترى أنه يحقق مصالحها، وهي تفرضها على الشعوب بوصفها هي "العدالة" - وتزل العقاب بمن يخالفها بأن تصفه بالظلم والافتراء، أنا هنا أتحدث عن الظلم على نطاق واسع، والذي أقصده سيكون في أوضح صورة له في الأتوقراطية، التي تلجأ إلى الاحتيال وإلى البطش لكي تصادر مال الآخرين وحقوقهم، لا بالتجزئة، بل بالجملة. والآن، عندما يأتي رجل ويستولي على أموال المواطنين ثم يحيلهم إلى عبيد أرقاء، فإنه بدلاً من أن يوصف بأنه لص ومحتال، فإنه يحظى بالسعادة والباركة من الجميع. وهذا لأن الذين يشكون من الظلم يذمونه هم أولئك الذين يخشون أن يقع عليهم وأن تغولهم عواقبه، وهو لن يكون ظلماً أو عدواناً عندما يكون في طائفتهم أن يرتكبوه في حق غيرهم".

السوفسطائي ثراسيماخوس

محاورات أفلاطون ٣٣٨ - ٤٤

لست أدرى لماذا أجد في هذه الفقرة أكمل وأشمل وصف لمأساة الشعب الفلسطيني! لعله ما تتصف به من استطراد، فهي لا تعرض لمشكلة الأخلاق فحسب، بل أيضاً لمشكلة القيادة والأوتوقراطية. وهذان يصلحان تصنيفاً لما نحن بصددده! حقاً، هل نتجت المأساة عن عدوان اليهود على العرب، والذي يأتي -

كما أظن أنه لابد أن يكون الآن واضحاً تماماً بعد نصف قرن من التجارب، وبعد أن مات القادة والزعماء من الجانبين وجاء غيرهم ثم غيرهم — يأتى من أنهم هم الجانب القوى فى هذا الصراع العجيب، هل نتجت المأساة عن أنهم هم الأقوى وبالتالي فهم يفرضون إرادتهم ويصبحون هم الحق والعدالة؟ أم أنها نتجت عن الأوتوقراطية التى تسود من هم "أبناء عمومة" الجانب المعتدى عليه — وسنأتى لذلك حالاً، والتى تجعل... حسناً، بعض الشعوب، لن نقول كلها، لكى لا نقع فى المحذور، يجعل الشعوب التى هبت لنصرة المظلوم، تبدو أمام العالم أنها — كما يقول أفلاطون — تعاني من الأوتوقراطية وتعامل من حكامها معاملة العبيد، بعد أن نهب هؤلاء الحكام أموالهم وساقوهم كالخراف إلى... إلى مصير شعب العراق مثلاً، هذا المثال هو الوحيد الذى يمكننا أن نأتى به هنا ونحن مطمئنون. حقاً، ياله من خطأ فادح نقع فيه عندما لا نرى من هذه المأساة سوى عدوان القوى على الضعيف، دون أن نحاول أن نسأل أنفسنا عن طبيعة القوة والضعف، والسبب فى هذا وذاك؟

سوف نمضى الآن فى استعراض المشكلة برمتها، وليس مجرد الانفعال لحادث وقع أمس أو سيقع غداً، فالتاريخ ليس أياماً منفصلة، إنه متوالية عديدة، لا يمكنك أن تصل إلى خمسة دون أن تمر على أربعة، وإذا أردت أن تحذف أربعة فاعلم أن حساباتك مختلة وخاطئة.

بالضبط ما هو الموضوع؟

عندما نشبت حرب ١٩٤٨ كنت أنا طالباً فى السنة النهائية بكلية هندسة جامعة فؤاد الأول كما كانت تسمى إذ ذاك، وصدر أمر بتكليف جميع الخريجين من تلك الجامعة ومن جامعة فاروق الأول بالإسكندرية، كما كانت تسمى أيضاً، وخدمت فى سلاح المهندسين

منذ ذلك الوقت لغاية ١٩٧٠ وبالطبع حضرت الكثير من الوقائع الحربية خصوصاً ١٩٦٧، وبالتالي فلست واحداً من شباب اليوم الذين لا يعرفون بأمر هذه الأحداث إلا مما يوضع فى أذهانهم كما توضع اللقمة فى فم الرضيع فلا يجد بديلاً عن ابتلاعها.

خلاصة القول أننى عاصرت هذه الأحداث وأزعم أننى أعرف الكثير بحكم الظروف ، وعندما قامت "الحركة المباركة" سنة ١٩٥٢ اتصل بى ضابط كبير من قيادة سلاح المهندسين وقال لى إن المخابرات الحربية طلبت منه مندوباً ليكون عضواً فى لجنة تمثل فيها جميع الأسلحة وأنه قد رشحنى. ذهبت لمقابلة رئيس هذه اللجنة وكان أحد معاونى "البكباشى زكريا محبى الدين" الذى كان يرأس جهاز المخابرات إذ ذاك، وشرح لنا جميعاً أن مهمتنا هى أن نمر على دواوين الحكومة ونحن مسلحون بالطبنجات وبحقيق شخصية مذكور فيه أننا "مندوبو القيادة" — وأن نبليغ عن كل وكيل وزارة مثلاً ليس جالساً إلى مكتبه ... إلى آخره . قضيت خمسة أيام فى هذا العمل الغريب بدت لى خمس سنوات، وقدمت لرئيس اللجنة — الذى أصبح بعد ذلك سفيراً فى الخارجية — مذكرة قلت فيها أن هذا العمل لا يناسبنى ولا أنا مقتنع بهذا الأسلوب.

أذكر هذه القصة لمجرد أن أدلل على كراهيتى للانتهازية وللارتقاء على أشلاء الآخرين، وهل غياب وكيل وزارة عن مكتبه يدل على إهماله أو وجوب تحطيم مساره الوظيفى، منذ متى؟ أنا مجرد مواطن مصرى عادى يحب الصدق والحقيقة، والتحليل المنطقى. فما هى بالضبط قصة ما يسمى "الصراع العربى الإسرائيلى" ؟

مناسبة هذا التساؤل كانت — وقد يبدو هذا غريباً — كانت حصول صديق عزيز على جائزة الدولة التقديرية . وفى تلك المناسبة شاركت فى الاحتفاء به فى جمع صغير من الأصدقاء.

أثير بالطبع موضوع مأساة الشعب الفلسطيني والأطفال الذين يموتون برصاص جنود الاحتلال.

وسمعت من المحتفى به رأيه الذى سبق أن سمعته منه مرات عديدة، وهو يصف مشكلة فلسطين دائماً باستخدام كلمة "الزرع"، بمعنى أن أمريكا جاءت إلى بلادنا وزرعت فيها هذا الكيان الشاذ — وعندما أقول له أن الذى أدى إلى هذا هو الفجوة الحضارية التى تفصل بيننا وبين العالم المتقدم — الذى تنتمى إليه إسرائيل — وأننى من هذه الوجهة ، لا أرى فارقاً بين الإسرائيليين والإنجليز فإنه يسارع بالقول بأن هؤلاء ليسوا محتلين ، بل إنهم مستوطنون ، ليسوا جيشاً يمكن إجلاؤه ، بل إنهم زرعوا فى وطننا كما تزرع الشجرة الخبيثة . ثم يشير إلى مواضع من سفر الخروج وغيره فى التوراة تدل على مدى وحشية اليهود وتدلل على ذلك بما فعلوه فى سقوط أريحا وغير ذلك ، وكيف أنهم لا يقفون عند حد فى ممارسة سفك الدماء ، ولا يفرقون فى هذا بين البشر والبهائم . ثم يمضى الصديق العزيز فى هذا فيشبه الإسرائيليين بالصرص ، ويقول لى : ماذا تفعل لو أن لصاً اقتحم بيتك وقعد فيه ؟ هل تستلم لهذا الوضع ؟ ما الذى فعلته أنت نفسك عندما تسلل الغرباء إلى بيتك فى العجمى ؟ هل سكت على هذا ؟

الذى يعنينا من هذه التشبيهات هو ما أنوى أن أدلل عليه من افتقارها إلى الدقة . وسوف أبدأ بقصة بيتى فى العجمى ، وهو "شاليه" استأجرته من واحد من أعراب المنطقة المسماة "البيطاش"، وهذا باع العقار لشخص آخر حاول إغرائى بشرائه ولكننى رفضت أن أشتري شيئاً لا وجود له إلا فى الهواء ، وهذا ما حدث لشخص آخر بنوا له دوراً علوياً وباعوا له البيت — ولغيره أيضاً، خلاصة القول إن شخصاً معه عقد بيع لهذا العقار رفع دعوى صحة ونفاذ وحصل على حكم بذلك ، وكنص القانون فإنه يطلب من المحكمة تمكينه من دخوله لأنه مغلق ، وعندئذ تأمر المحكمة

المباحث بأن تتحرى عن سبب الغلق ، ولأن هذا المكان مغلق معظم السنة لأننا لا نأتى إليه إلا فى الصيف فقد أفادت المباحث بأنه مغلق لوجود نزاع على الملكية، وليس لأن شاغليه غير موجودين الآن ، وفى هذه الحالة يأمر القاضى بفتح المسكن عنوة وجرّد محتوياته وتسليمها له على قبول الأمانة، وهو يعرف جيداً أن الأمانة منعدمة فقط لا حيلة له فى ذلك.

وهكذا اتصل بى جيرانى فى المصيف ليقولوا لى أن غرباء يجلسون فى شرفة بيتنا وعلى مقاعدنا ويرتدون ملابسنا ويستمتعون بمخزون الشاي والقهوة فى أكوابنا ، وأن شريكهم ونديمهم فى هذا هو البدوى الذى استأجرنا منه البيت أول الأمر.

نصحنى البعض بأن أفتح البيت وألقى بهم إلى الشارع ، فهذا مسكنى وهذه ممتلكاتى أنا وزوجتى — وبأن أخذ معى اثنين أو ثلاثة من الفتوات المستأجرين لحمايتى من بطشهم أو اعتدائهم إذا حدث . إلا أننى كنت قد سمعت بموضوع البيع، وبالتالي فهمت أن هؤلاء الأشخاص لابد مسلحون بمستندات قانونية تدل على امتلاكهم له ، صحيح أنهم قد "استعبطوا" وتظاهروا بأنهم لا يعرفون أننى مستأجر للدور الأول ، ولكن هذا لا يجعلهم لصوصاً فى نظر القانون ، فقد دخلوا البيت بحكم محكمة ، تماماً كما دخل اليهود فلسطين بقرار من الأمم المتحدة، هؤلاء وهؤلاء لصوص ومعتدون من الوجهة الأخلاقية ، إلا أنهم ليسوا كذلك من الوجهة القانونية ، وإذا لجأت إلى القوة فى افتتاح المسكن فسوف يعمل بالطبع محضر وقد يجد المحقق — أو القاضى فى النهاية — أن تصرفى لم يكن قانونياً ، وربما يقول لى : "لما أنت يا أستاذ صاحب حق ، لماذا لم تلجأ إلى القانون؟" ، وإذا تصادف أن الصدام أدى إلى إصابات أو خسائر مادية أو — لا سمح الله — بشرية، فإن القاضى قد يجد أننى أنا المذنب — دفاعى سيكون أننى شاغل لهذا المسكن ومعى ما يثبت ذلك . قلت لنفسى : إذا كنت

سوف أضطر لأن أثبت حقى فى شغل المسكن وإلا فسأبدو أنا المجرم وأنا المعتدى ، فلماذا لا أبدأ من هنا ؟ لماذا لا أبدأ بإثبات حقى أمام القانون؟ ذهبت إلى الشرطة فأوفدوا معى مندوباً استدعى الشخص الذى كان بالداخل، وجاء معه عقد البيع وقرار المحكمة بفتح المنزل عنوة، أوقفنا المحضر وتحول إلى النيابة حيث قال لى رئيسها أنه لا حيلة له أمام اقتحام المسكن بحكم محكمة ، لو لم يكن هناك سند قانونى لكان أصدر قراراً بالقبض على هؤلاء الأشخاص وتسليمى المسكن ، وأضاف : "حقك واضح ولكن لا بد من رفع دعوى" - وهذا ما عملته ، دعوى مستعجلة ، وصدر الحكم بتمكينى من المسكن بعد ستة شهور من إقامتها ، وبدلاً من أن أقتحم البيت محاطاً بفتوات يلبسون الجلابيب، ذهبت ومعى محضر ، و فى حماية قوة من الشرطة وتصادف أن قائدها كان ضابطاً شاباً اسمه محمد حازم ، رأيت على مكتبه ونحن فى قسم البيطاش كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني، وفى الحال وكما هو معتاد حدث التعاطف المعتاد بين الأدباء ، خصوصاً وأن الأمر كان روتينياً تماماً ، فما عليه إلا أن يلبس الطبنجة وينادى على مساعديه ... وهذا بالضبط ما حدث . دوره فى الموضوع ليس له دخل بالنزاع الأصلي .

إلا أن هذا لم يكن ما حدث فى موضوع فلسطين . الذى حدث هو اتباع طريقة "الفتوات"، وبدون أى ترتيب أو استعداد. كان الإنجليز ما يزالون فى مصر، بل ويقال أنهم كانوا يمدون الجيش المصرى بالذخيرة من مخازنهم فى قاعدة القناة ، والقوات طبعاً لا بد أن تعبر القناة وتتقاطع معهم فى طريقها إلى فلسطين، أما الجيش الأردنى فكان قائده إنجليزياً هو الجنرال جلوب باشا، وكان الضباط الإنجليز ينتشرون فى وحداته، إذا أضفت إلى كل هذا أن الإنجليز هم الذين أصدروا وعد بلفور سنة ١٩١٧، الذى ينص على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين (النظر بعين العطف ...

البحر ، كان هو النص المستخدم)، وإذا أضفت إلى هذا أيضاً أن فلسطين كانت تحت الانتداب البريطانى لغاية إعلان قيام الدولة اليهودية سنة ١٩٤٨ بمقتضى قرار الأمم المتحدة الذى صدر فى أواخر العام السابق لها ، وإذا أضفت أن جولدا مائير كانت تتردد على قصر الرغدان فى عمان وتقتضى أياً ما وليالى فى التفاوض مع الأمير عبد الله الذى أصبح الملك عبد الله ، وهى أمور تألفت عنها الكتب، وكما هو معروف فإن الملك اغتيل بأيدي مجموعة فلسطينية اتهمته بأنه تعاون مع اليهود على اقتسام فلسطين، وإذا أضفت الوقائع التى تلت ذلك ومنها هجوم الإسرائيليين على مصر، واحتلالهم أبو عجيلة ، وتقدمهم نحو العريش (وفى منتصف الطريق بين أبو عجيلة والعريش كانت توجد دبابة إسرائيلية محترقة ، ورأيتها فى إحدى زيارتى أثناء عملى بسلاح المهندسين) — ثم أنه بعد ذلك تقابل المصريون مع الإسرائيليين فى روديس وأبرمت أول اتفاقية هدنة بينهما وبمقتضاها انكف الحصار عن قواتنا الموجودة على الشريط الساحلى من غزة إلى العريش ، إذا أضفت هذا كله ستجد أنه لا يوجد أدنى شبه بين حرب ١٩٤٨ -١٩٥٠، ومعركة العجمى التى خضتها أنا وخرجت منها منتصراً . ولو أن مصر ومعها الدول العربية لجأت إلى الطريق الذى اتبعته أنا وهو التعامل مع المشكلة بالقانون وتجنب أسلوب الفتوات — خصوصاً إذا كان الخصم هو أيضاً مزوداً بالفتوات بل ومتفوقاً علينا جداً فى هذا الجانب — ولو أن هذه الدول استمعت لآراء حكمائها من السياسيين من أمثال إسماعيل صدقى مثلاً ، والحبیب بورقيبه ، بل والملك عبدالله الذى لم يكن موقفه سوى تمثيل فى تمثيل ، لكانت إسرائيل قد قبعت فيما هو مخصص لها فى قرار الأمم المتحدة ، وهو ما لا يتجاوز عشرة فى المائة مما هو لديها الآن، يتساوى فيه سكانه من اليهود مع سكانه من العرب ، أقل من نصف مليون لكل منهما بل إن هذا عاد وحدث سنة ١٩٥٦

وتحولت إسرائيل إلى حارة يهود كبيرة وفرضت عليها العزلة عندما ضربها أيزانهاور بالصرمة القديمة ومعها بريطانيا العظمى وفرنسا التي كانت عظمى هي أيضاً.

إلا أن هذه حكاية جديدة يحسن أن نبدأها من بدايتها، و يالها من مهزلة ينذر أن تجد لها مثيلاً في التاريخ، قديماً كان أم حديثاً !

ثعابين ، هذه المرة :

بعد اللقاء المذكور ببومين ، اتصل بي صديقي المحفنى به مرة أخرى ، وطلب منى قراءة عامود فى الأهرام بقلم الصديق الكاتب الصحفى أحمد الفقيه، فى أهرام ١٩/٧/٢٠٠١، يعنى قبل عيد الثورة المجيدة بأربعة أيام فقط. أخرجت نفسى من حالة التأمل الصوفى التى تنتابنى كلما حلت ذكرى الحركة المباركة ، وتجعل روحى تغوص فى أعماق من الطهارة الثورية لا مثيل لها فى بقية مشاعرى . وأكاد أقترّب من "الإلهام" الذى هبط على القائد العظيم عندما أمر بحشد قواته فى مايو ١٩٦٧، نعم ، هذا هو التعبير الذى استخدمه صفيه المقرب سامى شرف، ورواه من سمعوه منه عندما سألوه عن الموقف ! "هذا إلهام جاءه" ، جاءه كالوحي من السماء . أنا لا أقرأ كل شيء فى الجرائد ولا أقرأها كلها ، لم يكن هذا العامود قد فاتنى ، فعليه صورة الأخ الفقيه وهو صديق شخصى وعزيز، فقط لم أكن قد قرأته بعد .

العنوان هو "مع الاعتذار للأفاعى" - وهو لا يذكر لا إسرائيل ولا فلسطين بالاسم، إنه فقط يحكى عن صاحبه الذى تساللت الأفاعى إلى حديقته وحاول قتلها فلم يستطع، فدعا أبناء عمومته لمعاونته بكل ما لديهم من عصي وفؤوس ، وعندما أصيب واحد منهم بلدغة منها، (ليس واضحاً لى هل هذا الواحد هو صاحب الحديقة أم واحد من الذين هبوا لنجدة ، الكلام صحيح فى كلتا الحالتين على أى حال) ، تركوه يلقي مصيره وحده مسلحاً

بالحجارة .

حسناً ، أنا لا مانع لدى إطلاقاً أن نصف الإسرائيليين بأنهم لصوص أو بأنهم ثعابين ، وأن نعتذر للثعابين عن هذه الإهانة. لا مانع لدى بأن نصفهم بكل ما لا يمكن وضعه على الورق ، الذى لدى مانع منه هو أن يكون هذا كل ما نظن أننا نعرفه عنهم ، وأن نتعامل معهم على هذا الأساس ، لدى ألف مانع ومانع من أن تكون معلوماتنا عن أعدائنا مجرد قصائد من الشعر المنثور ، وركيكة أيضاً .

شئ اسمه الناصرية :

"ماركس الذى نسبت إليه الشيوعية لم يكن حاكماً، بل كان صاحب فكرة، أما عبد الناصر فكان حاكماً وليست له فكرة معينة ثابتة ، ولكن هناك من يقولون أن هناك شيئاً اسمه الناصرية من منطلق التقليد للماركسية . ولعبد الناصر أكثر من كتاب قامت عليه الناصرية ... له فلسفة الثورة ، وله بيان ٣٠ مارس، وبذلك فهو من حيث المبادئ والأفكار ، أثرى إنتاجاً من ماركس".

"جمال عبد الناصر عندما قرر دخول حرب اليمن ، لم يكن قد قرأ كتاباً واحداً عن اليمن ، وكل معلوماته جاءت من رجال يمينيين أو دخلاء على اليمن لكل منهم مصالح خاصة .

وقد قرأت كل ما كتب عبد الناصر وقال ، فلم أستدل على أن الرجل قرأ قراءة تذكّر .. بل لا أظن أنه قرأ كتاباً كاملاً خارج كتب الكلية العسكرية . وكتاب فلسفة الثورة الذى وضعه وكلفنا ترجمته إلى كل لغات العالم وطبعناه بالألوف هو دون شك أكثر كتب الفكر السياسى العالمى سطحية ، والدوائر التى رسمها كلها وهمية ، وهو نفسه لم يكن يعرف معناها الحقيقى " .

د. حسين مؤنس : "باشوات وسوبر باشوات"

— أن المهمة الكبرى لحامل القلم والفكر ، هي الكشف عن وجه الحقيقة.

— أدهشنى بعد ذلك ما جاء فى بعض الصحف العالمية : أن كتاب فلسفة الثورة هذا تتولى توزيعه فى الخارج جهتان فى نفس الوقت : السفارة المصرية والسفارة الإسرائيلية.

— كان عبد الناصر فى أوائل عهده قد أعد خطبة يلقيها ويعلن فيها خطة أو رؤية للسلام فى المنطقة ، غير أنه سمع من السفير الأمريكى وقتئذ ، كلمة استقبله بها فى زيارة فلم تعجبه الكلمة ، وانفعل وغير خطبته واتجاهه فى الحال . وكان لهذا الملك الانفعالى تأثيره على مصر الوطن كله ... كما سارت الأمور كلها بعد ذلك فى شؤون الدولة خارجها وداخلها على هذا المسلك وبهذا اغرك ! انفعال ورد فعل.

— كانت قبائل اليمن التى نريد استمالتها إلى جانبنا لا ترضى بغير الذهب ، فكانت تلقى إليهم من طائراتنا الزكائب الممتلئة بالأصفر الرنان . كما كانت ترمى من الجو لجيوشنا أطنان التموين والغذاء من صفائح الجبن الفاخر والمعلبات واللحوم والفاكهة ، ولكن الشمس الحارقة وعدم وجود ثلاجات كان يفسد الأطعمة فترك فى أماكنها مكدسة وقد لعب فيها الدود وانتشرت فيها رائحة العفن فلا يقرها أحد ، وأهل مصر من الجياع واغرومين لا يعرفون أن طعامهم هذا الذى يتمتونه ملقى للحشرات على تراب اليمن السعيد . وكانت القبائل تأخذ ذهبنا بالنهار وتصطاد ضباطنا فى الليل وتحجز رؤوسهم وتبيعها للطرف الآخر . غطاء الذهب الذى غلكه قد ضاع بأكمله فى هذه الحرب الضائعة .

— يجب إبعاد شخص الزعيم عن كل مسؤولية ، فالمسؤولون دائماً هم الآخرون ، وهكذا استمر هو فى كرسي الحكم على مصر والسزعامة الناصرية على العرب جميعاً — تلك الزعامة التى خربت مصر ونكبت العرب.

— إن فكرة الزعامة على العالم العربي هي التي أضاعتنا جميعاً ،
وهي التي استحوذت على فكر عبد الناصر وجعلته قوة مدمرة
لنفسه وللعرب .

— ألوان من التعذيب بلغت فظاعتها مبلغ الأساطير .

— كان الانسحاب في حرب ١٩٦٧ باهظ الثمن ، فظيلاً في
منظره ونتائجه وآثاره ... بل كان في رأى الخبراء العسكريين
مجزرة بشرية رهية ، فالأمر بالانسحاب السريع لجيش كبير انتشر
في الصحراء واتخذ مواقعه بعداته على مدى أسابيع ، ودعوته
لليجى حافياً تحت وابل من نيران العدو هو قرار أهوج من
مسؤول فقد أعصابه ويستحق المحاكمة .

— دفعنى المشاعر ودواعى الوفاء فافترحت إقامة تمثال له في
ميدان بالقاهرة ، جاءتني خطابات من بينها واحد يقول فيه صاحبه
أنه موافق على إقامة التمثال ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس في
القاهرة بل في تل أبيب ، لأن إسرائيل لم تكن يوماً تحلم بأن تبلغ
بهمزة السرعة هذه القوة العسكرية ، ولا أن تظهر أمام العالم بهذا
التفوق الحضارى ، إلا بفضل سياسة عبد الناصر .

توفيق الحكيم : "عودة الوعى"

هل من الضروري لكل حاكم أن تكون له "فلائية" ؟

كالماركسية واللينينية و"الكوكتيل" المشهور ، الماركسية اللينينية
التي طبقت أوعلى الأقل حدث تظاهر بتطبيقها فى أماكن عديدة ،
من روسيا إلى ألمانيا الشرقية ورومانيا وكوبا ، بل فى اليمن
الجنوبية ... والنتائج أوضح من أن تتطلب أدنى تعليق ، وسوف
يشهد من يبقون أحياء ، مصير كل هذه الأماكن ، فيما عدا ألمانيا ،
التي تحولت إلى خراج متقيح فى جسد ألمانيا الموحدة ، وبالتالي
فإنها سوف تنعم بـ "وحدة المصير" الذى لا تكف صحافتنا عن
الحديث عنه ، وسنأتى لذلك .

هل هذا ضرورى ، أن يتحول الدكتاتور إلى أفلاطون زمانه؟
وهل هناك بسماركية وتشرشلية وروزفلتية ؟ ولماذا لا يُنقِص حكام
دول لن نذكرها بالاسم ، بما قنع به هؤلاء الحكام الذين أنقذوا
شعوبهم من الهلاك ؟ أنه حتى الإمبراطور اليابانى العظيم "ميجى" ،
واسمه الحقيقى هو "موتسوهيتو" ، لم يخرج على العالم
ولا زعم أتباعه أن هناك شيئاً اسمه "الميجية" أو "موتسوهيتية" .

لقد عشنا لنرى فلسفات توضع لتكون موافق لمستقبل البشرية،
تنسب لأسماء نفر لا يعدون أن يكونوا أنواعاً من القوات ذوى
النوادر والحكايات، تأمل كيف اتخذ قرار توريط مصر فى حرب
١٩٦٧ وحاول أن تتساءل ! ترى أى حساب عمل قبل اتخاذ خطوة
كهذه ويا ترى ماذا كان مستوى دراية من اتخذها..لا بأحوال العالم،
بل درايته بأحوال بلده وقواته ؟ شراء الترام فى أروع صورته!

— احنا جاهزين يا عبد الحكيم ؟

— برقيتى ياريس .

هذا كل ما دار فى اجتماع نشرت الصحف أنه استمر أربع
ساعات، وصدرت تصريحات تؤيد صحته ، منها ما رواه نائب
الرئيس حسين الشافعى وهو يدين المارشال ويحمله المسؤولية .

إذا كان قدرنا أن توجد كلمة كهذه، الناصرية نسبة إلى ناصر،
كما أن الملوخية منسوبة إلى الملوك، فلنتأمل فى مضامينها لعنا نجد
شيئاً. طبعاً كان مفروضاً أن تكون "العتريسية"، عبد الناصر نفسه لا
ذنب له فى الموضوع .

تتمثل الفلسفة الناصرية — فيما يحكى — فى كتاب "فلسفة
الثورة"، الذى لا يبدو لى أنه يزيد على صفحات من الشعر المنثور،
بالغ الركاقة متهالك اللفظ والمعنى ، يتحدث عن ثلاثة آفاق للعمل
الوطنى والسياسى ، إفريقيا والعالم الإسلامى ثم العالم العربى، الذى
هو جزء من الإسلامى طبعاً ، وهذا ما جعل سفارة إسرائيل توزعه
فى كل بلد هى فيه لترى العالم أن فى مصر حاكماً مستتبداً يحلم

بالنفوذ فى هذه الدوائر الثلاث ، وقد اقتنع العالم بذلك كما هو واضح من النتائج.

ثم هناك مبادئ الثورة، التى يدرسها الأطفال المصريون فى المدارس، وهى تبشر بالقضاء على ثلاثة أشياء وإرساء أو إقامة ثلاثة أخرى .

القضاء على الاحتكار، باحتكاره ! أى الافراد به، ثم القضاء على الإقطاع الذى لا وجود له ، فمصر لم يكن بها إقطاع بل مجرد ملكية زراعية مسطحة لا يقوى صاحبها على تحويلها إلى ما اصطلح الناس على إطلاق هذا الاسم عليه ، بسبب طبيعة الأرض وأنموذج الري النهري الترعى واحتكام السلطة المركزية.

ثم يأتى القضاء على الاستعمار. ما الاستعمار ؟ وكيف سيكون القضاء عليه وعلى أى نطاق؟ وما نهاية هذا كله؟ على أية حال، فقد توصل عبد الناصر إلى ما يشبه مشروع صدقى بيفن الذى كان معروضا علينا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقبل أن يخرج الإنجليز — وهذه فيما نظن غاية القضاء على الاستعمار، وإلا فماذا هى؟ — كان قد استجار من الرمضاء بالنار وجاء بالروس ... لينبهروا هم بما لدينا فى بنزايون وعمر أفندى. على أى حال، كانت خطب عبد الناصر وإجراءاته وأحلامه ، تدور حول ما يلي :

— دعوى القومية العربية ، وفحواها أننا ما دمنا كلنا نتكلم لغة واحدة وندين بملة واحدة فنحن إذن وطن واحد، ويجب — لكى نصبح أقوياء — أن نتحد ونصبح دولة واحدة تسمى — مثلاً — الجمهورية العربية المتحدة* ، كما حدث فى حالة مصر وسوريا

* أمكننا أن نسترد اسمنا على الأقل ! كنت فى بعثة تدريبية فى صيف ١٩٦٦ ، قبل النكسة المباركة بأقل من سنة ، وفى حفل استقبال أقيم لنا ، اقتربت منى إحدى السيدات . وقرأت اسمى واسم بلدى على البطاقة المعلقة على صدرى ، وقالت لى — أى والله ! — لا تؤاخنى على جهلى يا سيدى ، أين تقع الجمهورية العربية المتحدة ؟ تذكرت هذا ، ومارست ما يسميه يوسف الشارونى " الضحك حتى البكاء " ، عندما قرأت عن مشاجرة بين الجاويش النوبجى الذى كان يحكم سوريا بعد ذلك بستين ، اسمه أمين الحافظ ، وعبد الناصر فى مؤتمر قمة (قمة من تحب يعنى) ، وقال له انه يحتره مما أسماء تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى شؤون سوريا ! وكانت تلك الجمهورية قد فقتت سوريا ثم ربع مصر ولكنها ما تزال متحدة .

اللتين أصبحتا إقليمين، أحدهما شمالي والآخر جنوبي، يحكمهما طبعاً زعيم معبود من هذين الشعبين، وهكذا فإن جميع الدول المسماة بالعربية ، يجب أن تدخل هذا الاتحاد بما في ذلك دول نظامها هو الملكية الوراثية المطلقة، كدول الخليج والأردن وليبيا (إذ ذاك) والعراق (إذ ذاك) والمغرب، بمعنى آخر لابد من "قلش" هذه العروش وتوحيد هذه البلدان، من المحيط الهادر — ولماذا هو هادر؟ — إلى الخليج الثائر، وهو لابد ثائر، يغلي، لأنه لا يطيق هذه الفرقة التي صنعها الاستعمار، وتعمتل في أعماقه أحلام الملايين في الوحدة. ليس هناك شيء اسمه كويتى ومصرى وتونسى (برغم المثل الشائع الذى يقول: آيه لم الشامى ع المغربى ؟) هناك مواطن عربى يعيش فى الكويت وآخر فى مصر وهكذا. وآيه ذلك وحدة الشعبين العربيين فى سوريا ومصر التي استمرت ثلاث ... ثلاث ماذا ؟ ثلاث سنوات كاملة ! وعندما انفصمت كان ما جرى للمصريين فى سوريا هو آية الوحشية المحايدة ! وكان العلاج سهلاً، شغل القيادة بالميثاق، وشغل الناس بمعادلة لتخفيض إيجار المساكن تهون إلى جانبها حسبة برمة كما تسمى .

— دعوى الاشتراكية . كل هذا لا يكفى . فكما أن الحقيقة قد تجلبت للزعيم العظيم ، وفتح عليه الله — استغفر الله! فتح عليه خروشوف وبريجنيف وأذناهما فى مصر ، كمال رفعت وعلى صبرى والأسانذة الماركسيون ، فتحوا عليه بنور الاشتراكية متمثلاً فى طائرات السوخوى ودبابات من جميع الأرقام. كما أن هذا قد تجلى له، فلا بد للمادية الجدلية أن تبسط جناحيها كالطائر الميمون فوق وحدة العرب، بما فى ذلك الجزيرة العربية ذات البترول وموطن "فلوس البترول" (التي تحدث عنها عندما روى أن الضابط الهمام، عصام، أخذ فلوس البترول التي أعطاهها له الملك سعود ليقتل عبد الناصر وجاء بها إليه لتكون نواة لمشروعات الفنك المسماة بالقاهر وأيضاً بالظافر . لماذا لم يسموها "ناصر "

و"عامر"؟) والتي فيها أيضاً الكعبة الشريفة والحرم النبوي .
والاشتراكية هنا شيء منطقي جداً . سوف تشترك أقاليم هذا
الوطن العربي في كل شيء : هناك من لديهم الفلوس ومن لديهم
التكنولوجيا ، وهكذا ، كمنظريّة الأواني المستطرقة ، نصبح كلنا
سعداء ولا أحد يملك شيئاً، كلنا نملك كل شيء . أما إسرائيل و
"من هم وراء إسرائيل" ، فلدينا القوة النووية العظمى للاتحاد
السوفيتي وهي كفيلة بأن تسكت صنائع الإمبريالية في كل مكان،
وهكذا نسترد "حقوق شعب فلسطين" ، باستخدام "أكبر قوة ضاربة"
في الشرق الأوسط ، خصوصاً بعد أن تتحول شعارات "لم الشمل"،
ووحدة الصفوف ، ووحدة المصير ، وقد أضيف إليها الآن "تنقية
الأجواء" مما يوحي بأن الأجواء إنز ملوثة. كما تتساوى الأقاليم
في الثروة (وهو ما نادى به صدام حسين أيضاً، اقتسام الثروة ،
آه، اللي في جيبك في جيبى ، إحنا مش إخوان؟) سوف يتساوى
الناس داخل كل إقليم ، وما عليك إلا أن ترجع إلى عبد الحليم
حافظ لكي تتحقق من إمكانية هذا كله . وطنى يا مالك حبك قلبى
... يا وطن الشعب العربى .. ياللى ناديت بالوحدة الكبرى بعد ما
شفت جمال الثورة ... جمال، والثورة ؟
أغلبنا لا يريدون، ولا يستطيعون، أن يتصوروا وقع هذا الكلام
على حكام دول المنطقة وشعوبها .

مقتطفات من كتاب الملك حسين : "حربنا مع إسرائيل"

— وسط هذا الجو المحموم لم يجد السوريون أنسب من أن يرسلوا
إلينا في ٢١ أيار (٢١ مايو سنة ١٩٦٧) سيارة لتفجر في الرمتا
على الحدود ، وكان من المفروض أن تفجر في قلب عمان ،
وأسفر هذا الحادث عن مصرع ١٤ أردنياً . ورداً على هذا
الشعور الأخرى قطعنا علاقاتنا مع دمشق . وقد أدى الحادث إلى

إشاعة القلق في الأردن ، ففي هذه الظروف الدقيقة لم نعد نعرف
ممن نخدر : من عدونا إسرائيل ، أم من حلفائنا العرب ؟
— استبعدت أن يكون الرئيس المصري راعياً في الوصول إلى
الحرب ، بل قام في ذهني أنه لا يتوقع نشوب نزاع ، في حين كنت
أنا مؤمناً بحتمية هذا النزاع .

— في يوم ٢٨ أيار (مايو) ١٩٦٧ قطعت خطوة أخرى في
تصعيد النزاع : فقد عقد الرئيس عبد الناصر مؤتمراً صحفياً في
القاهرة وأعلن أمام ٣٠٠ صحافي : "إذا أراد الإسرائيليون
الحرب ، أقول لهم أهلاً وسهلاً ، تفضلوا" ، وهذا يعني "أيها
الإسرائيليون ، ابدأوا أنتم بإطلاق النار .

— كانت رغبتى في مقابلة عبد الناصر غريبة عندما نفكر في
الشتائم والإهانات التي تصبها إذاعة القاهرة منذ سنة على العرش
الهاشمي .

— ذهلتنا عندما شاهدنا أحمد الشقيري يخرج من الطائرة وراء
الملك ، كان يبدو واثقاً من نفسه وهو عارى الرأس ويرتدى ثياب
الميدان من طراز ماوتسي تونغ . تقدم نحونا من دون أى إزعاج ،
كان شيئاً لم يكن . كأن الوصول إلى الأردن كان بالنسبة إليه أمراً
طبيعياً جداً . تصرف معنا ، ونحن الذين نعرفه تماماً ، كأن شيئاً لم
يحدث بيننا . يبدو أن السيد الشقيري نسى أنه يعلن ، منذ سنة ،
بأنه "يجب إسقاط نظام عمان قبل نظام تل أبيب" وهذا كله لم يمنع
الشقيري من تقبيل البعض ومصافحة البعض الآخر .

(زيد الرفاعي)

— أخى العزيز الملك حسين : يوم يكتب التاريخ ، سيذكرون
شجاعتهم وصمودكم

(برقية من عبد الناصر)

وشىء اسمه القومية العربية...

فى سنة ١٩٥٣ ، سرت إشاعة مؤداها أن أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد (باشا) يستعد لكى يشغل منصب رئيس الجمهورية ، (نجا بجلده !) - وكتب المفكر والعلامة الكبير إذ ذاك مقالا تحت عنوان "مصر تحكم بأبنائها لأول مرة منذ ألفين وخمسمائة سنة" - أذكر هذا لأنه ربما يكون هذا هو السبب فى أن الكثيرين من أبناء بلدنا يرفضون أن يتأملوا الحقيقة بشأن تلك الحقبة وما جره هذا كله عليهم، لأن هذا سيكون اعترافاً ضمناً بأننا لا نصلح لأن نحكم أنفسنا، ما أن حكمت مصر بأبنائها حتى ذاقت من الفقر والاستعباد والهزيمة والخراب والقمع والتعذيب والتشرد والإذلال ما لم يسمع به أحد طوال ألفين وخمسمائة سنة، كان قضية الحكم ليس فيها إلا هذا : أن يكون الحكام من أبناء البلد .

لم تكن مصر تحكم بأبنائها عندما نشأت فيها أول مكتبة وأول متحف فى تاريخ البشرية ، وعندما زارها أفلاطون وعاد ليذكر فى الكتاب السابع من "القوانين" أنه يشعر بالخجل لمستوى تعليم أبناء بلده من الإغريق عندما يقارنه بمستويات تعليم الأطفال فى مصر ، حيث يتقنون الحساب وهم ما يزالون يتعلمون الأبجدية، وتعد الألعاب الحسابية لإقناعهم وتوسيع مداركهم . لم تكن مصر محكومة بأبنائها عندما دحرت الغزاة من الصليبيين وعندما قصمت ظهر التتار الذين مسحوا آسيا بأكملها ، ولم يكن من أبناء مصر ذلك الأحمر الوجه الأزرق العينين الأصفر الشعر الذى لم يولد فيها ولم يعرف لغتها ، ولكنه خلصها من قبضة الأفاقيين من السفاحين السفلة واللوطيين الذين أفسدوا وأذلوا أهلها ، لم يكن من أبنائها ولكنه كان لديه من البصيرة ما يكفى - كما قال عنه بيرم التونسي - لأن يراها ببصره وبصيرته "كنوز، بس اللى يعرفها!" - لم تكن تحكم بأبنائها عندما أنشئت فيها واحدة من أعظم جامعات الدنيا إذ ذاك ، كان من أعلامها لطفى السيد ، وبذلت فيها

الأميرة فاطمة إسماعيل - بنت مصر، بكل تأكيد - الكثير الوفير
من مالها الموروث عن أبيها الخديوى، وعندما أنتجت أمير
الشعراء أحمد شوقي، والعلماء من طبقة مشرفة وعلى إبراهيم
وكامل حسين والسنجورى ووحيد رافت، وأقطاب الفنون والآداب
والموسيقى والمسرح وكل شىء، فقط، متى يكون الإنسان ابن
بلده؟

هل الأمريكان أبناء بلدهم؟ والأستراليين والكنديين؟ سواء من
يتكلمون الإنجليزية أو الفرنسية؟ ولماذا لا يظهر فيهم زعيم يلم
شملهم ويحقق أحلامهم فى الوحدة؟ أليسوا يتكلمون نفس اللغة
ويدينون بنفس الديانة؟

ولماذا لم يظهر فى سويسرا وبلجيكا زعماء يدعون الذين
يتكلمون الألمانية والفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات، إلى
ثورة تعيدهم إلى تلك الأوطان؟

عندما اشتبك الأمريكان فى الحرب العالمية الثانية وغزوا
ألمانيا وإيطاليا، ألم يكن ربما أكثر من نصف جنودهم من أصول
ألمانية وإيطالية؟ وكانوا يقابلون أقاربهم فى البلاد التى دمروها
فى زحفهم؟

لو كانت القومية هى مجرد اللغة التى يتكلمها الناس، ومعها
ديانتهم، لوجب إذن أن تتغير خريطة العالم وتظل تتغير بصفة
دائمة.

المسلمون فى الهند عددهم يفوق عدد المسلمين فى الباكستان،
وفى بنجلاديش؟ وهم يتكلمون الأردية والبنجالية والبنجابية،
حسب نسلاتهم، والمسلمون الذين لا يعرفون العربية، من إيران
شرقا إلى أندونيسيا، عددهم يبلغ أضعاف المسلمين الذين يعرفونها.
إذا لم تكن القومية هى اللغة والدين، فما هى؟

هذا هو السؤال، أليس كذلك؟

إلى أى "قوم" ينتمى الفرد الإنسانى؟

هناك عوامل كثيرة ، أقلها شأناً هو الأصول العرقية واللغة والدين . وهذا لا يعنى أبداً أننا نقلل من شأن هذه العوامل . فاللغة وسيلة الإنسان إلى التعلم والعمل ومعاشرة الناس والكون ، والإنسان حيوان ناطق ، وبدون اللغة يصبح حيواناً غير ناطق . والدين وسيلته إلى الله ، وبدونها يكون مشوش الإيمان منعدم القيم . كل هذا صحيح . فقط هذا شيء والقومية شيء آخر .

وقد كان البطالسة من الذين حكموا مصر ، وكانوا يتكلمون اليونانية ، ولكنهم تشربوا حضارة مصر وديانتها وأصبحوا مصريين .

وفى أمريكا اليوم ملايين من أصول فلسطينية ومصرية ، قد لا يكون الذين هاجروا منتمين تماماً للبلد الذى هاجروا إليه ، ولكن أبناءهم أو أحفادهم على الأقل سيكونون كذلك . هكذا حال الدنيا .

بل إن الأمر لا يقتصر على هذا ، كل من لديه القدرة المالية المطلوبة فى بلد مثلنا ، يحاول أن يعيش حضارة العصر لأنها هى الحقيقة الصلبة ، تأمل المدارس الأجنبية ، وتأمل الجامعة الأمريكية ، بل دكاكين ماكدونالدز (التي هى عندهم نظير عربة السيد التى تباع الكشرى والفول المدمس ، لا أكثر) تأمل سلوك الشباب فى الديسكو وعلى نواصى الشوارع ، إن لم تكن هذه هى "موضة العصر" فما هى ؟ الغاضبون عليها هم الذين لا ينالونها ، ومن ورائهم زعماء غارقون فيها ، يشعلون أحقادهم لكي يستبعدوهم ، هذه هى القصة بلا زيادة ولا نقصان .

هل يوجد شيء اسمه العالم العربي ؟

حقاً ، الكيان الصهيونى مفهوم . صحيح أنه ليست له حدود واضحة ، وكانت جولدا مائير تقول : حيثما يقف الجندى الإسرائيلى ، هذه هى حدود إسرائيل ، وكيف لا ؟ نحن أعطيناهم صكاً بممارسة البلطجة يوم ظهرنا أمام العالم بمظهر المتخلف الفقير الذى يتخذ موقع القوة العظمى ويريد أن يحل مشاكل العالم ، اليوم عندنا مشكلة الكونغو (نؤيد الثورة على السفينة بونتى ! نؤيد ثورتكم ، أرسلوا الأولاد ! حقاً ، ما أعظم النكتة المصرية ولعن الله من أصاب أصحابها بما أصابهم). وغداً لدينا مشكلة فيتنام ... إلخ ، أما مشاكلنا فى الصحة والتعليم والتموين ... فما أسهل حلها ، نضع ضباطاً فى مقاعد هذه الوزارات وفى الحال تتحل المشاكل. قد ترى هذا صحيحاً أنت وأنا ، ولكن العالم — وهو يضم إسرائيل ، ويجلسها فى الأمم المتحدة ، شئنا أم لم نشأ — فهو يرانا بمنظار يختلف قليلاً .

الكيان العربى ، بالضبط ما هو ؟

فى سنة ١٩٥٣ أعلنت قيادة القوات المسلحة عن مسابقة بعثات إلى الولايات المتحدة فى مختلف نواحى الخدمة ، وكان فيها مسابقة مخصصة لسلح المهندسين تقدمت إليها ، وكان الامتحان يتكون من : المادة الفنية (معدات ميكانيكية فى هذه الحالة) ، ولغة إنجليزية ، ثم معلومات عامة. وكان اختبار المعلومات العامة ثلاثة أسئلة يختار المتقدم واحداً منها ، وكان اختياري "جامعة الدول العربية" . كان قد مضت بضع سنوات على إنشاء هذه المنظمة التى لست أدري ، لم أكن إذ ذاك أدري ، ولا أدري الآن بعد مضى نصف

قرن ، كيف أصفها دون أن أرتكب جريمة أو أقع فى محذور أو آخر ؟ وأنا لست صحفياً أو مفكراً ، أنا ضابط فى الجيش ، (وقتك) .

إلا أننى لم أعبا بشيء ، ومضيت أكتب أئننى لست أرى دوراً لهذه المنظمة وكيف يستسغ من فيها أن يبقوا فى مناصبهم وقد رأوا الأنظمة العربية ترسل قواتها إلى فلسطين لا فى محاولة لإنقاذ شعبها من الضياع والهوان ، بل رغبة فى اقتسام الغنيمة. إمارة شرق الأردن تحولت إلى مملكة على حساب هذا الشعب، وواضح أن الإسرائيليين استولوا على بير سبع لكى ينعزل المصريون فى الخليل وبيت لحم ويضطروا إلى تسليم المنطقة للأردنيين ، فلا سبيل لهم إلى الانسحاب سوى من ذلك الطريق، لم أذكر شيئاً عن اللد والرملة والعملة ، تركت هذا لعبد الحليم حافظ، ثم انتقلت إلى الدول العربية التى ليست مواجهة لإسرائيل ، وذكرت أن دورها فى الموضوع هو لا شيء .. مجرد إرسال قوة رمزية ، غالباً تتكون من أشخاص مطلوب إبعادهم .

مضت هذه السنوات الطوال ورأينا دولة عضواً فى هذه المنظمة تنقض على دولة أخرى وتعيث فيها سلباً ونهباً وإحراقاً، وتعلن إنهاء وجودها وأنها قد تحولت إلى محافظة رقم ١٧ ، وانعقدت القمة . أنا لا أنتظر من هذه المنظمة عملاً إيجابياً، فقط على الأقل يحدث إجماع على الاعتراض على هذا العمل — تصور ! أن هذا لم يحدث، ستة أعضاء من هذه الدول الانتنيتين والعشرين ، وافقت على ما حدث ؟ أظن أنه لو أن الذين اختشوا بقى منهم واحد فقط لكان قد أغلق مقر هذا الشيء المسمى بالجامعة، (ولست أدرى من أين جاء هذا الاسم) ، ثم يتحول هذا المقر إلى فندق أو مدرسة أو حتى سوبر ماركت . يا لها من مهزلة ! كم ملياراً يا ترى من أموالنا نحن الفقراء ينفق على مآدب الكافيار والطائرات المجهزة لانتقال "الآلهة" ؟ أما عندما يأتى الأمر

لمصر فالإجماع ! تعليق عضوية مصر .. ونقل مقر الجامعة إلى تونس، رحم الله السادات : "لو أن نقل الجامعة من مصر سيعيد حقوق شعب فلسطين فنحن على استعداد لأن نحملها على أكتافنا" .
لحق بمصر الملك حسين في الصلح مع العدو، ولا شيء، وعقد ملك المغرب مؤتمراً حضره يهود العالم بما فيهم مئات من الإسرائيليين، ولا شيء ! وعندما جرؤ البعض على انتقاده قال إن هذه مسألة داخلية في المغرب ولا شأن لأحد بها.

ترى ما هي بالضبط أهمية حقوق شعب فلسطين عند الأنظمة العربية ؟ وأيهما يعد بحق طرفاً فيما يسمى بالنزاع العربي الإسرائيلي ؟

هل صحيح أن قوات إسرائيلية ساعدت الأردن في القضاء على المقاومة الفلسطينية في أيلول الأسود ؟ سنة ١٩٧٠ ؟ إذا أخذنا في اعتبارنا ما كان يمكن أن يحدث لو تغلب الفلسطينيون على الملك حسين واضطروه لمغادرة بلاده لعرفنا كيف أن هذا الأخير كان محقاً تماماً في أن يستعين بالشيطان نفسه كما فعل تشرشل . فقط ما الذي يدل عليه هذا كله ؟

هل توجد دولة من هذه الاثنين وعشرين، فيها نظام يهمله بأى درجة أمر الشعب الفلسطيني، بخلاف دول المواجهة، التي وجدت نفسها في مأزق جغرافي ، وبخلاف مصر التي .. ما علينا.
وما الذي تحقق بعد هذا كله ؟

وهل كانت الأمور تكون أسوأ من هذا لو أن أحداً لم يعترض على قرار تقسيم فلسطين ؟

وهل أى دولة أو عدد من الدول فيما يسمى بالعالم الثالث ، يمكنها أن تفرض إرادتها بالقوة في موضوع كهذا؟

نحن نذكر ما حدث لإنجلترا وفرنسا وإسرائيل سنة ١٩٥٦ ، ومنه أن نوبرين بيفان النائب العمالي ، وقف في البرلمان يقول: قبل أن نلجأ إلى شريعة الغابة ، علينا أن نتذكر أننا لسنا أقوى

الوحوش التى تعيش فيها .

ألسنا نرى الدول المنتجة للسلاح الذى ينفع فى الحروب الحديثة، كلها مؤيدة لإسرائيل وساهمت فى إنشائها ودعمها بكل شئ وبكل طريقة ؟

أن الآوان لأن نتساءل : لماذا يدعمونها ؟

العالم الثالث وحضارة العصر :

يجب أن يكون واضحاً لنا أن الغالبية العظمى من الدول العربية — كما تسمى — غارقة فى مشاكلها هى — سواء كانت مشاكل الحكم وانتقاله ، أو مشاكل الفقر والمعيشة ، أو العلاقات الخارجية والأخطار المحيطة — وأن دورها فى مشكلة فلسطين لا يتعدى خطبة تقال فى مؤتمر ، أو — إذا كانت الدولة خليجية، وبعد مجيء ثمار البترول فى أواسط الخمسينيات — مبلغ من المال . وهذا المبلغ عادة لا يصل إلى الشعب الفلسطينى ، إنه يذوب فى حمامات الفنادق الفاخرة وفى رمال الريفييرا . لا يفوتنى هنا أن أذكر بالخير والإعجاب ما فعلته دولة الكويت بالذات ، فتحت أبوابها ووظائفها للفلسطينيين ، بما فى ذلك منصب وزير الخارجية فى ذلك الوقت ، الذى كان فلسطينياً ، (كان اسمه فايز صايغ) وتأمل ما لقيته الكويت نظير ما قدمته من خير وتضحيات. إن أحاسيس الغيرة والنقمة والرغبة فى تدمير الآخرين كتعويض عن إصلاح الذات وتحسين الأحوال، هى التى تتمثل فى العلاقات العربية أكثر من أى شئ آخر ، ومن ذلك الشعار الذى كان يرفعه أحمد الشقيرى ، وهو أن تحرير عمان يجب أن يسبق تحرير فلسطين، هذا مع مراعاة أن المملكة الأردنية فتحت هى أيضاً أبوابها للشعب الفلسطينى ، وكما هو معروف، فإن الفلسطينيين يشكلون غالبية سكان المملكة، وانظر ما أوشت

الأردن أن تلقاه في أحداث أيلول. ولو أن الضفة الغربية تحولت إلى جزء من المملكة الأردنية ولو أن المملكة سعت إلى كسب اعتراف العالم بذلك - وأظن أن هذا كان متاحاً بسهولة - لكان شعب تلك المنطقة قد عاش في دولة مستقلة تتعم بحكم مستتير وسياسة رشيدة ، وإذا أردت تقييماً للملك حسين فما عليك إلا أن تعيد الاستماع لما يسمى خطاب التتحي ، والذي يأتي فيه الاعتراف بفضله وشهامته وشجاعته ، بعد سنوات من الرده البذئ والسباب الرخيص "ابن زين" ، وماذا في ذلك ؟ كما كتب أديب معروف ذات مرة، ما الذي يضير إنساناً أن تكون أمه اسمها زين ؟ (ولسنا نريد أن نشير إلى ما يشاع عن امهات الحكام ومن أين أتوا) يا لها من ثقافة وسفاهة، وبعد هذا نتساءل ما الذي جرى لنا ؟ حقاً، اللي اختسوا ماتوا، هكذا يقول المصريون، ويقال أنهم ماتوا في الزلزال الذي ضرب الإسكندرية أيام الفاطميين ، وكان الناس يستحمون في حمام عمومي، خرجوا عرايا ومذعورين، "خلعوا برقع الحياء" إذا كان البديل هو الموت، أما الذين لم يقدروا على ذلك، الذين "اختسوا" ، فهؤلاء الذين ماتوا .

حقاً ، ما أفدح المصيبة وما أعظم الكارثة.. لا يكاد يوجد نظام حكم في العالم العربي طوال سنوات الحرب الباردة، لم يحاول أن يستغل مأساة الشعب الفلسطيني لمصلحته هو، باستثناءات تتمثل في دول الخليج ، التي ليس لديها إلا المال والوظائف ، وقدمت هذا بقدر عظيم، سواء كان هذا تعاطفاً، أو خوفاً من الرأي العام عندها، أو من تهديد الفلسطينيين الذين أعلن بعضهم أثناء السبعينيات أنهم سوف يتسللون إلى غرف نوم الحكام، كل هذه كانت مسببات للسخاء العظيم الذين قدموه. وهناك دول مثل لبنان، لا ناقة لها ولا جمل في المسألة لاعتبارات معروفة جيداً، ولكن النكسة جاءت بها باختلال في التركيبة الاجتماعية وغزتها فصائل التحرير التي بدأت تلعب فيها نفس الدور الذي لعبته في الأردن

وهو تصويب السلاح لا إلى العدو الإسرائيلي عبر الحدود، بل إلى صدور أصحاب المتاجر والمطاعم، أدى هذا — كما نعرف — إلى حرب داخلية طاحنة قسمت لبنان إلى مناطق نفوذ طائفية، بقية هذه القصة معروفة للجميع وعواقبها ما تزال ماثلة. لبنان على أية حال، بلد لا يستطيع أن يعطى شيئاً، وكانت مركزاً للإشعاع الثقافي والحضارى، كان يمكنها أن تلعب دوراً بهذه الصفة.

هناك استثناءات أخرى: تونس. فى ظل حكم بورقيبة، ظلت تونس تحتفظ بروابط ثقافية مع فرنسا، وكان بورقيبة يرى حتمية التعامل مع إسرائيل، ويرى أنه لا فائدة من النزاع المسلح، وأظن أنه لم يعد هناك ضرورة للدفاع عن هذا الموقف. بعد نصف قرن نرى جميع العرب يرفعون شعار أنهم: دعاة السلام !

ليبيا : أيام السنوسى ، يعنى لغاية قيام ثورة الفاتح العظيم سنة ١٩٦٩ ، ثم الجزائر ، بلد المليون شهيد ، بطولة، ما فى ذلك شك، إلا أن الحياة فيها أشياء كثيرة ذات قيمة بخلاف البطولة ، منها الحكمة مثلاً ، كما فى حالة بورقيبة ، خصوصاً إذا كان مليون من البشر سوف يهلكون من أجل زعماء يسرقون الملايين ويقتلون بعضهم بعضاً، وما عليك إلا أن تتأمل النتائج! آه ، المغرب ، أيام محمد الخامس ثم الحسن الثانى، البلد الذى هو بداية العالم العربى من ناحية المحيط الهادر .. الحرس الملكى الخاص فى هذا البلد يتلقى تدريبه فى إسرائيل فيما يقال. لا ألومه على ذلك. انعقد مرة مؤتمر قمة هناك، وطبعاً ثارت الخلافات، ووقف الملك الحسن يقول لـ "ضيوفه" — "المطارات كثيرة فى المغرب" — وفعلأ، انفضوا بعد أن طردهم رئيس المؤتمر، الذى أصبح بعد ذلك رئيساً للجنة القدس !

مجرد ربط كل قرار يتخذ بإجماع هذه التوليفة العجيبة من المندوبيين ، لا يعنى إلا استحالة اتخاذه ، اللهم إلا إذا كان موجهاً ضد البقرة الحلوب . أما البقية ، فكما يقول المثل : ما قدرش ع

الحمار قدر ع البردعة . كل واحد يرى أن المشكلة لا تحل إلا بتحرير بلد عربي آخر من نظامه العميل .

نحن نعيش عصراً معيناً، ومع تمسكنا بأهمية الماضي، وحتمية المستقبل ، فإن لهذا العصر حضارة تفرض نفسها علينا، والذين ينكرونها إما يفتقرون إلى ما يلزم لمعايشتها، أو يريدون تعزية من يفتقرون إليه. ولكن هناك فارقاً كبيراً بين ما هو واقع حاصل، وما هو قضية أخلاقية. موثيق الأخلاق ضرورة للمجتمع الإنساني، ولكن الحياة ليست بأكملها قضية أخلاقية، والفرد الإنساني قد يكون ملتزماً ومتعاطفاً، ولكنه يظل في موقف يفرض عليه أن يتنافس مع الآخرين ويتسابق معهم من أجل لقمة. هناك نمط حضارى يهيمن على هذا العصر، وهو لا يتمثل في مجرد أمريكا التى أصبحت "ملطشة" بسبب موقعها القيادى، بل هو أمريكا وأستراليا وكندا وأوروبا واليابان والنامور الآسيوية، قد يكون أصدق تمثيل له هو مجموعة الدول الصناعية، وإذا تمكنت روسيا من أن تفيق مما حاق بها من حقبة الشيوعية (والذى حاق بنا أدهى وأمر وأضل سبيلاً ولا أظن أننا سوف نستطيع أن نشرب بأعناقنا فوق الوحل الذى غرقنا فيه) فإنها سوف تنضم إلى هؤلاء. سوف نعود إلى الخريطة الحضارية للعالم وموضعنا فيها بعد ما سيأتى.

هل مازلت تتصور أن هناك شيئاً اسمه العالم العربى ؟

هل مازلت تظن أن هناك شيئاً اسمه الصراع العربى

الإسرائيلى ؟

ما فتئنا (حلوة دى ؟) ما فتئنا نتحدث عن لم الشمل ووحدة الصف، ونعيد ونزيد، مضى القرن العشرون بأكمله ونحن نخدع شعوبنا بهذه التعبيرات التى ليست جوفاء فحسب، بل أيضاً ركيكة وسمجة وعديمة المغزى. كل دولة عربية دون استثناء تقريباً، دخلت فى صراع مسلح مع دولة عربية أخرى، على الأقل. أو حشدت قواتها كما حدث بين سوريا والأردن، بشكل

يذكرني بنجيب الريحاني وهو يتشاجر مع جاره في الدور العلوي في فيلم "سلامة في خير"، ويصعد الدرج جرياً ثم يهرول نازلاً. ضحك نفسك مكان إسرائيل، سواء الحكومة أو الشعب، وحاول أن تفكر أو تشعر بما يفكرون به أو يشعرون ؟ ما الذي وراء هذا ؟ وراء حقيقة لا نريد أن نعترف بها أو حتى نواجه أعماق نفوسنا بها: العرب مجموعة من الدول ليست بينها روابط حقيقية. متفاوتة في كل شيء ومتباينة في كل جانب وكل مظهر من جوانب الحياة ومظاهرها. مستوى المعيشة، مستوى التعليم، التقاليد، العادات، العلاقات الدولية، نظم الحكم والإدارة، الفنون، الملابس، طبيعة الأرض، النشاط الاقتصادي، العملة، بعضها قصاصيص أو كوبونات محلية، وبعضها له مكانة عالمية كالدينار الكويتي مثلاً وبقية عملات الخليج والأردن. ليس لدينا شيء يعطيه أهدنا للأخر .. اللغة؟ آه، أية لغة يا سيدى العزيز؟ إن قيمة أى لغة هى نتاج ما يفعله بها أصحابها. فما الذى نفعله بها؟ هل جامعاتنا تجرى البحوث بالعربية؟ هل توضع المؤلفات الفكرية والعلمية باللغة العربية؟ إننا حتى لم نعد نفهم بعضنا بعضاً، وأتمنى أن نجتمع في صيوان واحد أساتذة اللغة في كل الأنحاء ونجرب لهم امتحاناً!

والأدهى من هذا كله ، مصيبة الشيوعية .

الذى أقصده بالشيوعية ليس التنظيم الحزبى ولا موقف دعاه الماركسية كما يحب صديقى المذكور أن يقول "عبد الناصر كان يجلس الماركسيين"، صحيح . وكذلك ستالين . لم يكن ستالين يكتفى بحبس الماركسيين ، أنه كان يعذب ويقتل أنبياء الماركسية من نوع تروتسكى وغيره ، فهل هذا يا أخى العزيز، ينفى أن الاتحاد السوفيتى كان تطبيقاً لنظرية الشيوعية ؟ البلاد يكون شيوعياً عندما:

(١) يتحالف مع الشيوعية العالمية، ممثلة في الكتلة الشرقية

أيام الحرب الباردة .

(١) يخضع اقتصاده ليبروقراطية الدولة.

ألم يحدث هذا في مصر ؟ وهل ينتفى لمجرد أن تشاوشيسكو مصر كان يحبس الماركسيين ثم يعود فيطلق سراحهم ويخرج الواحد منهم من الحبس ليجلس على رأس مؤسسة صحفية أو إعلامية ؟ السؤال هو : ماذا كان تأثير هذا التحول على موقف العالم من قضية فلسطين ، العالم الغربى الذى لا ينام الليل من الرعب النووى ، ويجد أن مصر ، ومعها سوريا ، وهما الدولتان اللتان تتصدیان لهذه القضية ، كلتاهما حليفة موسكو ، ومعهما منظمة التحرير الفلسطينية ؟ هل تنتظر من دول مثل فرنسا وألمانيا وإنجلترا ثم أمريكا أن تقول لنفسها: معلى ، برضه إحنا لازم نكافح من أجل القضية ! الذى حدث هو أنها قالت لنفسها : مش بس متخلفين ، ومش بس أعداءنا من أيام الحروب الصليبية ، ومش بس حكامهم بينهبوا ثرواتهم ويضيعوها فى المغامرات ، لأ وكمان متحالفين مع أعداءنا وعمالين يقولوا لنا اشربوا من البحر الأبيض ومن البحر الأحمر .

يقال أن ليندون جونسون عندما سمع بقول عبد الناصر موجهاً حديثه إليه: اشربوا من البحر، قال لمساعديه: سأجعله يشرب من المجارى. ولكنه - فى واقع الأمر - لم يشرب من المجارى، شربناها كلها نحن الشعب، بينما القائد الملهم يشرب الايفيان فى قصره فى منشية البكرى والشماشرجى يقول فى مذكراته أنه اقترح عليه أن "نأخذك إلى مكان آمن فى الصعيد !" الشعب كله فداء لقائده المحبوب، المهم ألا يتعكر دمه، "والنبي ما تزعل أبداً " هذا يحدث وما يقرب من نصف مليون من أبناء البلد يهيمنون فى الصحراء ويموتون من الظمأ والجرحى منهم ينزفون تحت الشمس الحارقة، والطيور الجوارح تغرس مناقيرها فى لحومهم وهم ما يزالون أحياء، والإسرائيليون لا يعرفون ما يفعلونه بهذه الجحافل

سوى أن يبيدوهم كإسراب الذباب .. وكفى ما هم فيه من جمع
الغنائم من العربات والجرارات والدبابات والمعدات الإلكترونية
التي رهنّت مصر قطنها وكل ما لديها عشرات السنين من أجلها!
وبدلاً من أن ينزل الزعيم إلى الشارع ليعلن أنه على استعداد لأن
يدفع أى ثمن يريدّه الإسرائيليون، معاهدة سلام، أى شيء، فى
سبيل إعادة هؤلاء الجنود إلى بيوتهم، بسيارات الجيش المصرى،
ووقود من مستودعاته فى سيناء، على أن يعود الإسرائيليون
بغنائمهم، لن يعترضهم أحد، ثم وهو فى نفس الموقف، يعلن أنه
يسلم نفسه للمحاكمة، بدلاً من هذا رأينا عضواً فى البرلمان يرقص
طرباً لأن الرئيس عدل عن قراره بالتحقيق، وكيف لا ؟ وهو
يتقاضى خمسة وسبعين جنيهاً لا تساويها بلده كلها عنده ؟ وجريدة
الأهرام تنشر صوراً للمظاهرات التى تطالبه بأداء دوره فى هذه
المهزلة، وتحته عنوان يقول ..أندرى ما تقول: "فرحة الشعب"!!
هل تستطيع أن تتصور ما يراه فينا العالم ونحن هكذا ؟ البلد،
شعبها ، كرامتها ، ثروتها ، كل هذا لا يساوى خمسة وسبعين
جنيهاً يتقاضاها واحد ممن يسمون نوابها .

أعرفت الآن من أين جاءت نسبة الخمسين فى المائة ؟
أعرف بالاسم رجل أعمال جلس فى ناديه وقال هذا الكلام .
الرجل مدفوع طبعاً بالأسى على أحوال بلده . أتعرف ما الذى
جرى له ؟ اختفى فجأة من على وجه الأرض ، وبعد يومين اتصل
مندوب من المخابرات بأسرته ليأتوا لاستلام جثته ، ولا تحاولوا
أن تنشروا نعيّاً له ، الصحف سوف ترفض على أى حال ، وإياكم
أن تقيموا جنازة . ادفنوه "سُكيتى" - فى هذا الصدد نشرت مجلة
"أكتوبر" تحقيقاً صحفياً عن مبنى مجلس قيادة الثورة ، يتضمن
صورة "قاعة المحكمة"، فى إحدى جلساتها يظهر فيها عبد الناصر
ومحبي الدين وغيرهما، ثم صورة للحجرة المجاورة لها، "غرفة
الإعدام"، حيث يلقي حتفه كل من يجرؤ على أن يحتج على ما

جرى لبلده، أن يرفع صوته فوق صوت المعركة ! معركة لن تحدث أبداً، لكي لا ترتفع الأصوات على الأقل !

فى واحد من مؤتمرات الشعبىة قال أمام الميكروفون : "إننا ما عندناش اعتراض على الماركسية، بأى حال م الأحوال !" حسناً، ومع ذلك يريد أن يحقق وحدة الوطن العربى .

طيب، يعنى هل تريد من شعوب الجزيرة العربية أن تتوحد تحت لواء الماركسية ؟ أن ترفع النجمة الحمراء فوق الحرمين الشريفين ؟ يخيل إلى أن نجمة داوود معقولة أكثر ، فقد كان داوود نبياً، وهو مذكور فى القرآن، المأساة هى أن هذا الحاكم المطلق السلطات، الذى يحيط نفسه بمعاونين هو ولى نعمتهم وبالتالي لا يجرؤ واحد منهم على أن يسمعه إلا التسبيح بحمده ، وتمثل هذا فى مؤتمر النكسة الشهير ، ضابط مدفعية على يمينه يعمل وزيراً للخارجية، فالبك خلت تماماً من الدبلوماسيين ، وضابط آخر وزيراً للإعلام على شماله وهو يقول أنه "مش خرع زى مسر إين"، المأساة هى أن الذى يريد توحيد العالم العربى مع أنه ليس لديه اعتراض على الماركسية ، تتمثل فى أنه لا يعرف شيئاً لا عن الإسلام ولا عن الماركسية .

وقد وجد من يفلسفون شيئاً اسمه "الماركسية الإسلامية" . فأمل كان عبد الناصر يتخيل فعلاً أن فى إمكاننا أن نشترى السلاح من الاتحاد السوفيتى ونحط فى اليمن ، وننشئ قاعدة للزحف الاشتراكى ثم نستولى على منابع البترول ثم نذل العالم الغربى كله، وإذا قاومونا فإن الاتحاد السوفيتى سوف يتكفل بهم..

شخص بهذه العقلية كان فعلاً .. لا يحكم مصر فحسب ، بل يتخذ كل قرار بشأن حاضرننا ومستقبلنا ومستقبل أولادنا ، والذى يجرؤ على مجرد اللفظ بكلمة اعتراض ، هناك حمزة البسيونى وأحمد الأنور* وخبراء التعذيب المستوردين من الخارج على

* هذا الكائن الذى كان مديراً لواحد من أشنع السجون فى تاريخ البشر، عينه عبد الناصر -

حساب نفس هؤلاء الذين سيتعذبون ، ومن أموالهم .
كل هذا كان بالطبع معروفاً جيداً للإسرائيليين ، أما الروس ،
فماذا كانوا ؟

اليهود والاتحاد السوفيتي وبقيّة العالم :

لكي نناقش هذه النقطة يجب علينا أن نكون واعين للمشكلة التاريخية لليهود. أغلبنا يفتقر إلى الدراية بهذه النقطة وطبعاً سياستنا — كالمعتاد — هي: إياك أن تتحدث في هذا الموضوع أو أن تحاول أن تعرف شيئاً عنه. وأيام أن كانت العبودية مازالت تمارس في الولايات المتحدة — وبقيّة العالم هنا وهناك طبعاً ، فهم لم يخترعوها — ولغاية وقوع الحرب الأهلية كان محظوراً على العبيد أن يتعلموا القراءة والكتابة. وكان الذي يعلم واحداً منهم — وهذا سيكون أبيض طبعاً — يعتبر قد ارتكب مخالفة جسيمة، أما العبد نفسه فإن أصابعه تقطع بالساطور لكي لا يستخدمها فيما تعلمه . لست أرى فارقاً كبيراً بين هذا الإجراء وما فعله اتحاد الكتّاب المصريين بالكتّاب المسرحي على سالم، فصلوه من عضوية الاتحاد (لا أظن أنه يحس بأنه خسر شيئاً، بيني وبينك)، وذلك بدعوى أنه ثقيامه بالتطبيع مع العدو الإسرائيلي، وهي عبارة تتصف بقدر من الركاقة وانعدام التناسق بين اللفظ والمعنى، تكفي لأن تعسف ما أقصده بأنه لم يخسر شيئاً كثيراً. لا بد أن نحارب — أو نتظاهر بأننا نحارب — هذا العدو دون أن نعرف عنه شيئاً لكي تكون الهزيمة كاملة وأيضاً لا نعرف أنها وقعت. كل ما جناه هذا الكتّاب هو أنه التقى بهم وألف كتاباً عنهم وعرف عنهم معلومات أراد أن ينقلها إلى الجميع . يلحق هذا طبعاً بسلوكنا المعروف والذي اعتكناه ، وهو سلوك النعمة ، إذا لم تكن ترى

= سفيراً لمصر في مدريد ، اقرأ وصف المؤرخ الدكتور حسين مؤنس الذي يصف فيه اعتدائه بالضرب على سكرتير السفارة إلى حد أنه أسأل دمه ومزق ملابسه وأمر بحبسه في بدروم السفارة. أسلوب ثوري في الدبلوماسية ؟ أليس كذلك ؟

المشكلة فهي إذن ليست موجودة . أنا لا أفكر إذن أنا ليست لدى مشاكل .

كم تظن عدد من يعرفون أنه كانت هناك مملكة قديمة اسمها إسرائيل ، فيما هو الآن إسرائيل وفلسطين ؟ كم تظن عدد من يعرفون — في كل أنحاء المنطقة — أن اليهود لقوا من صنوف الإضطهاد والبهذلة ما لم يلقه شعب آخر ، وأنهم قد طردهم الأمير الروماني "طيطاس" — الذى أصبح إمبراطوراً بعد ذلك ، وخرب معبد سليمان مما أدى بهم إلى الشتات فى كل أنحاء الشرق والغرب ، كان هذا سنة ٧٠ ميلادية ، يعنى بعد ميلاد المسيح . المسيح عليه السلام ولد يهودياً وكذلك كل حواربييه وأنصاره ، وهو لم ينكر الناموس — كما أوضح — وذكر أنه جاء لكى يضيف إلى الديانة اليهودية لا لكى ينقضها. الأنبياء السابقون له والمذكور كثيرون منهم فى القرآن ، مثل إبراهيم ثم اسحق ثم يعقوب ولوط ويوسف وموسى وأيوب ، كل هؤلاء عبرانيون . وبالتالي فإن الكتاب المقدس عند المسيحيين وعند اليهود هو ذات النص ، الفارق الوحيد هو أن اليهود لم يصدقوا المسيح وبالتالي فإن الإنجيل — وهو ليس إلا سيرة المسيح وأقواله — هو الجزء الوحيد الذى يختلف عليه الفريقان .

ليس هذا ذنب أحد ، هذه هى الرسالات السماوية . الحقيقة إذن هى أن التراث "اليهو — مسيحي" هو الذى يسود كل أوربا والأمريكيتين (وهاتان طبعاً تمتلآن بالمهاجرين من أوربا) أوربا، طبعاً ، يعنى روسيا أيضاً . جميع الأنبياء الذين يؤمن بهم المسيحيون ، كلهم يهود ، طبعاً جاء بعد ذلك قديسون من أجناس متعددة، ونحن طبعاً — المسلمون — نؤمن برسالات الأنبياء الذين ذكرناهم فيما سبق .

وفى عصر الرئيس الأمريكى كارتر — وكان رجلاً متديناً — كان عندما يجتمع مع مناحم بيجن يظل الاثنان يتمثلان بآيات من

كتب التوراة والأسفار الملحقة بها.

هناك إذن روابط عقائدية وروحانية وراثية وثقافية عميقة ووثيقة بين هاتين الطائفتين . لا ينفي هذا حقيقة أن يهود الشتات تعرضوا للكثير من أحداث الاضطهاد ، وإلى مذابح حصلت في أوروبا وأمريكا تستهدف اليهود ، كمذبحة يورك الشهيرة في إنجلترا، واستمر هذا إلى أن وصل إلى قمته في عصر ألمانيا النازية والذي يرجع إلى أن فلسفة هؤلاء كانت تقوم على النقاء العرقي ، واليهود ساميون ، أو مفروض أنهم من نسل سام ابن نوح، وليسوا آريين كالألمان الأنقياء ، ومما يذكر أن الغجر تعرضوا لحمولات الإبادة في نفس الحقبة على أيدي الألمان ، فهم أيضاً — فيما يرون — جنس واطئ . كان هتلر وأذنابه يعتبرون اليهود حيوانات ، بما في ذلك كائنات مثل سيجموند فرويد ، الذي هو أبو التحليل النفسي ، وألبرت أينشتاين ، وهو أبو الفيزياء الحديثة ، وهنري بيرجسون ، فيلسوف الزمن والتطور الخلاق ، وإن كان النازيون قد تعمدوا ألا يؤذوا من وجدوه منهم في البلدان التي فتحوها ، فرويد في النمسا وبرجسون في فرنسا.

فترة الصراع هذه — الحرب العالمية الثانية — أيضاً ليست ، في ظني المتواضع ، مفهومة جيداً على مستوى العموم . وقد رأينا بعض الشباب أيام حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، يتظاهرون منادين : "تقدم ياروميل !"، تعبيراً عن غضبهم لما فعله الإنجليز عندما فرضوا حكومة الأغلبية على الملك ، كما لو كان الألمان سيكونون أفضل من الإنجليز البطالين . إذا كانت هذه نظرة النازي لليهود لكونهم ساميين ، فلك أن تتأمل كيف تكون نظرتهم لنا ونحن — منذ قرون — لم نقدم للعالم علماء وفلاسفة مثل هؤلاء .

قبل أن أمضي في حديثي ، أريد أن أتوسل للقارئ ألا يترك مشاعره القومية تطغى على قدرته على التحليل الموضوعي . على مدى القرون الستة الأولى من الألفية الثانية ، كان كتاب العالم

الكبير ابن سينا فى الطب ، المسمى "القانون" ، هو كل ما لادى أوربا فى هذا الموضوع . وكذلك فإن العرب — أو الناطقين بالضاد ، كائنة ما كانت سلااتهم العرقية — قد أعطوا البشرية أصول الجبر والكيمياء والفيزياء ، على أيدى نوابغ مثل الخوارزمى ، (الذى يستخدم اسمه كمصطلح فى علم بحوث العمليات الحديث "ألجورنم" كما هو شائع ومعروف) وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم . وقبل ذلك بألف السنين ، كان المصريون القدماء يبنون الأهرامات والمعابد بينما شعوب أوربا تسكن الكهوف وتفترس ما تصطاده من الحيوانات كالحوانات ، وكان لادى المصريين مدارس ومستشفيات ونظام للإدارة ومشروعات للرى وكان يجرون جراحات فى المخ ، إلا أن تاريخ الحضارة يتحرك كما يتحرك كل شىء فى هذا الكون .

يؤرخون لعصر النهضة فى أوربا من منتصف القرن الرابع عشر إلى نهاية القرن السادس عشر ، كانت هذه صحوة هائلة فى أوربا بعد السبات العميق الذى تلا عظماء المفكرين من الإغريق فى القرون السابقة لمولد المسيح عليه السلام .

فى أواخر تلك الحقبة ظهر المفكرون من طبقة جوردانو برونو، ونيقولا كوبرنيكاس وجاليليو جاليل، وقالوا لنا أشياء جديدة عن حركة الأجرام فى السماء تغير المفاهيم التى كانت سائدة منذ عصر بطليموس الفلكى، الذى هو يونانى الأصل ولكنه اسكنرانى وبلدياتنا مائة فى المائة. وهذا ليس عيباً فيه ، كان ما قال به فى زمانه يعد معجزة فكرية، ولكن اكتشاف الإنسان لحقائق الكون والحياة يظل يمضى شئنا أم لم نشأ. تلا تلك المرحلة أربعة قرون من السابع عشر إلى العشرين كانت حافلة بالكشوف العلمية والاختراعات التى جعلت حياة الإنسان على هذا الكوكب تصبح ما هى عليه الآن ، كل هذا حدث فى أوربا وأمريكا الشمالية التى هى — من وجهة النظر هذه — تعتبر صاحبة من ضواحي أوربا.

ألتقط أنفاسى وأتوقف لكى أحلف بالله العظيم أننى لا أهدف إلا إلى استعراض الحقائق من أجل التوصل إلى فكر يقوم على العقلانية وليس على الانفعال العاطفى، وأتمنى ألا أكف عن تذكير أبناء بلدى أنه فى سبيل التوصل إلى السلطة فإن الكثيرين من المضللين لا يتورعون عن خداع الناس بشعارات الاشتراكية والأصولية وهم آخر من يؤمنون، لا بهذا ولا بذاك ولا بهذا وذاك معاً! وأكرر أن أوربا كانت فى حضيض التخلف قبل نهضتها هذه، وكان أطباؤها يعالجون المرضى بأن يجعلوهم يبتلعون العناكب وهى حية . ولكن الحقيقة تبقى وهى أن لوى باستير كان أول من اكتشف وجود الجراثيم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مما أدى إلى بداية عالم جديد فى الطب، لا ينتقص هذا من قدر ابن سينا، فالمعرفة تمضى فى طريقها مستقلة عن كل شىء آخر وتطبيقاتها تأتى كل يوم بوسيلة جديدة فى حياة البشر، هذه الوسائل لها دائماً تأثيرات جانبية ضارة، لأن هذه طبيعة الحياة من جهة، ونظرتنا نحن إلى ما هو خير وما هو شر من جهة أخرى. إبادة الجراثيم التى تصيبنا باستخدام المضادات الحيوية يعد خيراً لنا نحن البشر، ولكن الجراثيم ستخالفنا فى ذلك بطبيعة الحال، وأنا شخصياً أشرفت على الهلاك مرتين، لا بسبب المرض، فقد كان تافهاً فى الحالتين، بل بسبب الإسراف فى تعاطى الدواء، ولعل القارئ قد جرب شيئاً من هذا . نحن هنا بسبيل استعراض حقائق التاريخ التى تهمنا فيما نحن بسبيله ولسنا — على وجه الإطلاق — نتحدث عن الخير أو الشر أو أن الجواجات "ناس كويسين" أو "وحشين"، هذا ليس موضوعنا إطلاقاً .

من نيوتن وفارادى فى إنجلترا إلى ماركونى فى إيطاليا، من جورج أوم فى ألمانيا إلى أندريه أمبير فى فرنسا وإلى جراهام بل وتوماس أديسون وهنرى فورد فى أمريكا ، من مندليف الروسى السيهودى إلى نيلز بور الدانماركى — عالم جديد من الكشوف

والاختراعات أدى إلى حضارة جديدة نعيشها جميعاً ولكننا نتعمد مهاجمتها وإنكارها، الأصوليون يدعون إلى نبذ كل شيء فيها، ماعدا المدافع الرشاشة والموتوسيكلات والتليفون المحمول والأدوية طبعاً . كفانا نفاقاً . ونحن عندما نناقش لا نخدع إلا أنفسنا، فالعالم كله يعرف الحقيقة . من نحن ؟ العالم الثالث ، الذى نحن الآن فى دركه الأسفل . سنأتى لهذا فقط كجملة اعتراضية صغيرة، التخلف فى حد ذاته ليس عيباً ، معظم العالم متخلفون وفى جميع العصور، العيب هو أن نستكين لهذه الحقيقة بل أن نتفاخر بها مظهرين ما لديهم من "مادية" و "قساد" — بل وندعو إلى مزيد من التخلف ، الذى يعيننا من هذا هو موقع يهود "الاشكنازى" من هذا كله .

يهود الشتات وجدوا أنفسهم أقلية فى أوروبا وأمريكا طبعاً ، ويهمنا هنا أن ندرك مغزى أن يكون الفرد يهودياً، أنها ليست مجرد ديانة كالإسلام أو المسيحية أو البوذية ، يمكنك أن تعتق أيّاً من هذه ، وبالطبع فإن ملايين لا تحصى من البشر دخلت فى هذه الديانات، ولكنك لا تستطيع أن تصبح يهودياً (هناك خلافات بهذا الخصوص بين حاخامات اليهود والسلطات الإسرائيلية) — لابد أن يولد اليهودى من أم يهودية يمتد نسبها لغاية يعقوب عليه السلام ، ابن اسحق ابن سيدنا إبراهيم ، أبى الأنبياء .

تختلف الأقليات فى سلوكها ، ولكن العجيب فى أمر اليهود هو أنهم أقلية من نوع لا مثيل له ، فهم يعتقدون أنهم جميعاً من نسل يعقوب ، ونظن أنهم لو مضوا يتناسلون فى دائرتهم المغلقة لكانوا قد هلكوا من العيوب الوراثية ، وواضح أن اليهودى الألمانى يبدو ألمانياً واليهودى اليمنى يبدو يمنياً والحبشى أيضاً حبشياً . ما علينا، يمكنهم أن يزعموا أن هذا أتى من التزاوج مع الأجناس الأخرى، لو أن امرأة يهودية تزوجت رجلاً اسكندنافياً مثلاً فسيأتى نسلها نصفهم من العنصر السامى والنصف الآخر من الآرى ،

وهكذا ، ولكنهم يظلون يهوداً ولهم الحق في جنسية إسرائيل في مواجهة الاضطهاد المستمر ، والذي من أمثلته محاكم التفتيش مثلاً التي شنت في أواخر القرن الخامس عشر حملة إبادة ضد المسلمين واليهود في إسبانيا ، والتي تمثل واحدة من أبشع البشاعات في تاريخ البشرية والتي تدل على أن فظائع اليهود كما هي واردة في التوراة ليست اختراعاً يهودياً يقتصر عليهم ، تاريخ البشرية كله — للأسف — فظاعات وإن كانت البشرية قد تقدمت خطوات هائلة وعظيمة في القرن العشرين ، وإن كره المؤمنون! وسوف نأتي لذلك في سعينا نحو إقرار الحقائق . والمفارقة التي لا مثيل لها هو أن اليهود المضطهدين في إسبانيا وجدوا ملاذاً في ظل الخلافة الإسلامية في تركيا ، مما أدى إلى ظهور طائفة "الدونما" المعروفة في تاريخها ؟

الذي يهمننا من كل هذا هو :

(١) موقف روسيا والشعب الروسي من اليهود لا يختلف في شيء عن بقية شعوب أوربا ، حوادث القمع على مدى القرون تواجهه من جانب اليهود بالامتياز في المعرفة والعلوم والفنون ، خصوصاً في القرن العشرين ، وأيضاً بالسعى إلى السيطرة عن طريق المال كسلاح أمضى من كل أبيض هندي ، وتاريخ أسرة روتشيلد معروف جيداً .

(٢) عندما قامت الثورة البلشفية شارك فيها يهود روسيا بأوفى نصيب، بل كان منهم زعماء و "أنبياء"، على رأسهم ليف دافيدوفتش برونشتاين ، الذي كان اسمه الحركي ليون تروتسكي. وظل اليهود على قمة الحزب الشيوعي لهذه اللحظة. وعندما قامت حركة الانشقاق التي أدت — مع عوامل أخرى طبعاً — إلى سقوط الاتحاد السوفيتي والشيوعية كلها، كان قادتها كلهم من اليهود، على رأسهم عالم الفيزياء وأبو القنبلة الهيدروجينية أندريه ساخاروف

(ساخاروف يعنى زكريا بصيغة الجمع).

(٣) صحيح أن اليهود كانوا طيلة الوقت مكروهين فى كل أنحاء أوروبا والعالم المسيحى ، وصحيح أن الطائفة الكاثوليكية بصفة خاصة تصب نقمتها عليهم والكثيرون من المنتمين للمسيحية — التى هى الديانة التى تسود الجزء المتقدم والقوى من العالم — يحملونهم مسؤولية الوشاية بالمسيح وبالتالي إعدامه على الصليب، إلا أن هذه الكراهية لا تأتى من عشق المسلمين. إذا دخل هؤلاء فى الحلبة فأنا وابن عمى على الغريب . ومرة أخرى ، الجهل بحقائق التاريخ — وعلى رأسه ثلاثة قرون طويلة من الحروب الصليبية التى كانت تستهدف تحرير القدس واستخلاصها من قبضة المسلمين — الجهل بهذا التاريخ يمكن أن يعجز الإنسان عن التفكير الصائب فى هذا الموضوع .

(٤) الحرب العالمية الثانية كانت صراعاً بين أيديولوجيات الفاشية والماركسية والديموقراطية. هذا واضح. إلا أن هذه الأيديولوجيات كلها وليدة الفكر الأوربى، وبذلك فإن تلك الحرب تختلف كثيراً عن الحروب بين المسلمين والروم مثلاً، والتى لك أن تعدّها حسمت بسقوط الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى، ولك أن تعدّها مستمرة لأن الحرب العالمية الثانية إنز برغم ضراوتها وفظاعتها التى تأتى من أنها كانت صراع الجبابرة — وبرغم ما هو منسوب للألمان فى حق يهود أوروبا — لم تكن عداوة مريرة بين شعوب القارة، بل مجرد صراع بين أنظمة الحكم، وما عليك إلا أن تتأمل الخريطة الإجتماعية والسياسية لأوروبا الآن، ستجد ألمانيا وفرنسا فى حالة سمن على عسل، روسيا بعد انتهاء أغبى نظام للحكم والإدارة وأكثر النظريات السياسية فساداً وبهيمية، نتمنى أن تلحق بهذا الركب طبعاً وتدخل الاتحاد الأوربى، فهم شعب أوربى وأيضاً يهو — مسيحى، وسبعون سنة من تجربة مقيته لم تغير فيهم قيد أنملة، والذى يظن أن الاتحاد السوفيتى كان

قاداته يتمنون أن تنتصر مصر أو العرب (إذا كان هناك كيان سياسي اسمه العرب) على إسرائيل ، يكون واهماً .

(٥) مجئ اليهود إلى فلسطين إلى جانب كونه نتيجة للفجوة الحضارية، فهو أيضاً في جانب منه استمرار للحروب الصليبية التي امتدت من مطلع الألفية الثانية لغاية اللنبى ثم إلى الآن* .

لم يكن حاكم مصر واهماً فقط ، كان أسوأ من هذا بكثير . لقد جاء السوفيت إلى مصر ليبيعوا التزام، وهو تزام صدئ وخربان و "منيل على عينه"، آسف لأنى لا أجد فى الفصحى تعبيراً أكثر صدقاً من هذا .

* هذا مع إحترامنا وتقديرنا لرأى البابا شنودة فى ان كلمة الصليبيين تسميه خاطئة . وهو يرى أنهم يسمون "الفرنجة" إلا أن الكثير من التعبيرات يدخل التاريخ ويصبح نمطياً بتأثير الزمن . "الفرنجة" أيضاً فيهم من لا علاقة لهم بالحروب الصليبية .

شراء الترام

الحكام ينخدعون ومصائر الشعوب هي الثمن ... صدق أبو العلاء المعري :

يسوسون الأمور بغير عقل .: وينفذ أمرهم فيقال ساسة الحكم والأمثال والتعبيرات الشائعة ، كثيراً ما تكون تعبيراً رائعاً عن الفكر الإنساني وعن مقدرة البشر على التفنن والإبداع وإعمال المنطق.

ويبدو أن لدى المصريين قدرة تفوق المتوسط في هذا المجال، واذكر أنه في أعقاب يونية ١٩٦٧ ألقى الرئيس الراحل عبد الناصر أول خطاب طويل على الشعب ، ذكر فيه أنه يتفهم النكت التي شاعت بين الناس ، "لأنني منهم" ، هكذا قال . أنا أيضاً منهم ، وكذلك أنت ...

بعض الحكم يبدو غير دقيق تماماً ، فهناك مثلاً : "عدو عاقل، خير من صديق جاهل" ، وأنا كنت طفلاً عندما سمعت هذا لأول مرة ، كان عنوان قصة قرأناها ، عن الدبة التي قتلت صاحبها وهي تحاول إبعاد ذبابة حطت عليه وهو نائم . وأذكر جيداً أنني سألت نفسي بسذاجة الطفل : "كيف هذا ؟ إن أسوأ ما يمكن أن ينتلي به الإنسان هو العدو العاقل ؟ " فقط عرفت بعد ذلك أن المرء قد يستخدم عقله هو أيضاً لمواجهة عدوه ، وقد ينجر من شره ، أما الصديق - جاهلاً كان أم عاقلاً ، فمن الطبيعي أن تهمل أن تحتاط من غدره أو غيائه . ومن هنا جاءت مقولة : اللهم احمني من أصدقائي ، أما أعدائي فأنا كفيل بهم .

ويولع المصريون أيضاً بهذا التعبير : "إحنا أولاد النهاردة" .

وهم يستخدمونه بقصد حل الخلافات الأسرية والشخصية وإزالة آثارها من النفوس على أساس أن ما فات قد مات ، قد يصلح هذا الأسلوب فى مثل هذه المواقف، فقط عندما نأتى لإزالة آثار العدوان، بجميع أنواعها وبلاويها، فإن تجاهل الماضى لن ينفع فى شىء ، الواقع أن الماضى ، بل والبعيد منه — يتمثل أمام عيوننا ويعتمل فى نفوسنا ويحدد معالم حاضرننا ومستقبلنا معاً، ومن العبث — بل من السفه — أن نحاول أن ننساه أو حتى نصفح عنه، وإلا لما كان لكم فى القصاص حياة، يا أولى الألباب.

إن اللحظة التى نعيشها الآن ليست سوى الرقم التالى للرقم الذى كان منذ لحظة مضت، فى سلسلة طويلة من الأحداث الرقمية، ولو أن حدثاً واحداً وقع، وحاولنا أن نتصور أنه لم يقع، لتغير كل شىء فى هذه الحياة بالتأثيرات المطردة المتسعة النطاق. لا احنا مش ولاد النهاردة! إحنا بالتأكيد ولاد أول إمبراج . فى تاريخ مصر ، كما فى تاريخ كل أمة قديمة ، كوارث رهيبة. قمبيز مثلاً ، قد يكون أول حادث غير وجه مصر بأن دمر روحها القديمة وأذل أهلها وأذاقها الهوان ، مما جعل شاعرها شوقى يكتب مسرحية بهذا العنوان ، ثم الرومان ، وهم لا يقلون بهيمية وبربرية عن الفرس ، هؤلاء دمروا الأمة ووضعوا نهاية لها كدولة مستقلة ، منذ أنطونيوس وبعده أوكتافيوس ، أما الحركة غير المباركة ، التى حدثت بعد ذلك بألفى سنة ، وبرغم المماليك والعثمانيين ، فقد كانت هى التى دمرت الشعب هذه المرة ، بأن حطمت ما لديه من قيم وضيعت ما لديه من مال وغمرته فى التعاسة والهموم ، وعلمته أن الجهل أنفع من العلم ، والظلم أعظم من العدل ، والفتونة أرقى من الذكاء ، وأنه إذا كانت القيادة تتكون من البلطجية واللصوص والحشاشين والأفاقيين ، فلا شك ستفضل من تطمئن إلى كتمانهم لأسرارها ، وهم أهل الثقة ، وليس إلى من يحترمون أنفسهم ويحسون أنهم ليسوا فى حاجة إلى اختطاف ما

لدى الآخرين ، لأنهم يستطيعون أن يكونوا مثلهم أو أفضل منهم، وهؤلاء هم المنبوذون من أهل الكفاءة . وعندما نقول اللصوص والحشاشين ، نحن لا نشتم أحداً ، فهذه الممارسات تحدثت عنها الصحافة المملوكة للدولة ، لا صحافة العالم فحسب، تحدثت الصحف عن "قطعة الأفيون التي كان المشير يلوكلها" — يوم "انتحاره" ، وكيف أن رئيس الأركان حاول أن يستلها من فمه ، وتحدثت عن شخص كان رئيساً للوزارة ثم أصبح أميناً عاماً للتنظيم السياسى ثم نائباً لرئيس الجمهورية بعد ذلك ، نسبت إليه الصحف فيما يشبه البيان الرسمى ، إساءة استخدام المال العام ، والتهريب الجمركى ، وهى أمور كانت شائعة ومعروفة . ثم ماذا؟ لا شىء ؟ ! لم يحدث تكذيب ولم يحدث أيضاً تحقيق ؟؟ إن كان هذا لا يعنى أن كبار المسؤولين وزعماء الثورة يحق لهم ممارسة النهب فما الذى يعنيه ؟ أفهم أن القتل والتعذيب كان لحماية الثورة — على طريقة روبسبير وأمثاله ، وإن كانت الثورة ليست على الإطلاق ثورة كما قلنا ، فالثورة تكون ضد السلطة وليس بواسطتها ولا يترجمها من فى يدهم كل السلطة . من ثائر على من ؟ إن كان هذا لا يعنى ذاك، فما الذى يعنيه ؟ ترى ما أثر هذا على الصراع العربى الإسرائيلى ؟ وعلى نظرة العالم إليه ؟

الماضى فى حياتنا :

الحياة ، سلسلة متصلة مستمرة من الأحداث، وكل حدث يقع فى موضع من الزمن والمكان ، ويكون تأثيره المباشر على من يوجدون فى هذا الموضع ، ولكنهم عندما يتأثرون ، فإنهم — بدورهم — يؤثرون على غيرهم من الناس والأشياء ، ويمتد هذا الأثر كأنه "لجة الماء يلقى فيه بالحجر" كما قال ابن الرومى ، وإلى جانب الانتشار فى المكان ، فإن الأثر يبقى على مدى الزمن،

تماماً كما يرسب هذا الحجر فى قاع البركة وتمضى القرون وهو ما يزال فى موقعه من هذا القاع .

تاريخ كل أمة سلسلة من هذه الأحداث ، تترك علاماتها فى كل موضع ، وأحجارها فى أعماق كل نفس. إن الذى يراه العالم على سطح مصر هو الأهرام وتل العمارنة وأبو سنبل والكرنك ومكتبة الإسكندرية وأثارها الغارقة ، ثم مدينة الفسطاط و جامع عمرو ، وأثار أحمد بن طولون وقلعة صلاح الدين وجامع محمد على ودار الأوبرا المحترقة ... والسد العالى ودار الأوبرا الجديدة ... هذه علامات تاريخ مصر التى كتب بها كما لم يكتب تاريخ أية أمة على وجه الأرض ، ولا عجب ، فمصر تجمع إلى "أمصار" ، وهى أول مصر فى تاريخ البشرية ، وأول دولة وأول حكومة وأول حضارة عظيمة فى حياة الإنسان ، ونصفها الجنوبى ، وهو مصر العليا ، اسمه "الصعيد" ، و هو مشتق من "ص ع د" ويرد فى الكتاب الكريم أيضاً بمعنى آخر هو التراب النقى، وذلك فى الآية : "فتيمموا صعيداً طيباً".

كل هذه الآثار والعلامات راسبة فى أعماق كل واحد فىنا ، كالحجر الذى سقط فى اللجة ، سواء بوعى منا أو بدون وعى . كل واحد منا نتاج كل هذه الأحداث والآثار والحكام والمذاهب والعلوم والفلسفات ، ومن الأهمية القصوى أن نكون عالمين بهذه السلسلة من الأحداث ، خاصة ما هو قريب منها .

إن مشكلات حياتنا اليومية، ومستقبلنا كما سيأتى، تمتد جذورها فى تاريخنا القريب والبعيد، وإذا لم نعرف هذا التاريخ، فسوف نجهل هذه الجذور وسوف نستعصى علينا معالجة مشكلاتنا لأننا لا نعرف أسبابها، والمرض لا يتلاشى بإخفاء أعراضه، بل باكتشاف الجرثومة التى تحدثه ثم مهاجمتها بالعقار الذى يقضى عليها.

هذا هو موضوعنا . ما هى جذور مشكلاتنا الجارية وما الذى ومن الذى أنبت هذه الجذور ، وإلى أى حد يمكننا التوصل إليها

وما قدر ما يمكن اقتلعه منها . والسياسى ورجل الدولة وأعضاء
أجهزتها ، إذا أرادوا أن يكونوا مخلصين لبلادهم فإن عليهم أن
يقرؤوا تاريخها ويعوه جيداً لكي تكون معالجتهم لمشكلاتها مجدية
ونافعة، وأساتذة التاريخ فى العالم المتقدم يلعبون دوراً أساسياً فيما
يتخذ من قرارات. وكان الرئيس الأمريكى الراحل جون كينيدي
مولعاً بقراءة التاريخ وكان يحيط نفسه بحاشية من المؤرخين ،
وعندما أقدم الرئيس السابق جورج بوش على عقد مؤتمر مدريد ،
وهو — فى رأى المتواضع — جهد كبير ورائع فى سبيل معالجة
مشكلة الشرق الأوسط ضيعوه طبعاً ، تردد وزير خارجيته جيمس
بيكر على المنطقة عدة مرات ، وذات مرة زار عمان ثم انتقل إلى
القدس، وحرص على أن يقطع هذه الرحلة بالبر عن طريق جسر
اللدنبي، قائلاً إن هذا سيمكنه من الحس بالمنطقة والعيش فى
تاريخها، وقد كانت صيحة اللدنى: "لقد عدنا يا صلاح الدين" إيذاناً
بحلقة جديدة فى مسلسل الحروب الصليبية ، ولا شك أن الأوربيين
على جانبى الحرب العظمى كانوا سعداء جداً بهذا، الحلفاء من
جهة والقوى المركزية التى كانت تحاربهم من جهة أخرى. بل
أظن أن الجنرال الألمانى "فون كرسنشتاين" الذى كان يقود الجيش
العثمانى فى فلسطين ، كان سعيداً بهزيمته . ولا شك أن الإنجليز
أصحاب وعد بلفور وأصحاب الانتداب على فلسطين ، قرروا منذ
تلك اللحظة ألا يتركوا الأراضى المقدسة تعود إلى سيطرة
المسلمين بعد ذلك . وكذلك فإن فرنسا اقتطعت لبنان لتكون مأوى
للطوائف المسيحية . ومعروف جيداً أن العثمانيين لم يكونوا قدوة
للعالم فى معاملتهم لتلك الطوائف.

ولو أن حكام الدول العربية فى النصف الثانى من القرن
العشرين، ورجال الدول فيها، كان يعرفون قدرأ كافياً من التاريخ ،
منذ فتح بيت المقدس على يدى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله
عنه، إلى قرون الحروب الصليبية، إلى سقوط مملكة أورشليم فى

عصر الظاهر بيبرس، إلى خضوع المنطقة كلها للعثمانيين، ثم حملة النبي، ثم إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، لو أنهم كانوا يعرفون هذا جيداً لكانت نظرتهم إلى المشكلة قد اختلفت كثيراً ولكانوا أدركوا من بالضبط يحاربون عندما يحاربون إسرائيل وما جدوى مثل هذه الحرب ولعرفوا لماذا حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، لماذا حدث أن كان تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية هو الشيء الوحيد الذى اتفقت عليه القوتان العظميان برغم ما بينهما من عداوة مريرة ورعب قاتل متبادل، وظلتا تتفان عليه إلى يومنا هذا حتى بعد أن تحول الاتحاد السوفيتي إلى روسيا الاتحادية بكل ما لديها من مشكلات ومتاعب.

إن أى بلد فى الدنيا، هو ملك لشبابه لا لشيخه، فنحن راحلون، نحن الشيوخ، وعلينا أن نترك لشبابنا بيئة تصلح للحياة. كل ما يعانى به شبابنا اليوم من ضنك ويأس وما يرزحون تحته من أُنقال الحياة، كل هذا ليس وليد السنة الماضية ولا التى قبلها، أنه يرجع إلى عشرات كثيرة مضت من السنين. وهذه هى أهمية النظرة التاريخية، أن نعرف من أين جاء هذا. إن فى هذا العالم أماكن تعاني من آثار حروب دارت فيها منذ مئات من السنين ، محاولة تحسين الأحوال تبدأ بدراسة تاريخها وجذور المشكلات المتمثلة فيها، لأنه على مستوى الـ "ماكرو"، أى المستوى العمومى، الواسع النطاق، يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ومن هنا فلا غنى عن النظرة التاريخية .

أمس واليوم :

شبابنا يرون فى مصر الآن دولة ومجتمعاً يختلفان إلى حد هائل عما كانا عليه عندما كنا — نحن العجائز — ما نزال شباباً .
نتصف مصر الآن بهذه العلامات :